قصائد محمود شاكر المخطوطة
تؤكد أصالته الشعرية

عرفته ناثراً فى مستهل الصبا الأول، قارئا مقالاته فى الرسالة، ثم عرفته شاعراً، فصدقت المعرفة حدسى الأول، حيث لم أفتقد فى نثره روح الشاعر وبلاغته، لأن كليهما من واد واحد وطبقة واحدة، وروح واحدة، وكثير من قرنائه فى مهنة الكتابة والتحقيق تغلب عليهم الصنعة، على حساب الطبع، ويظلون طول عمرهم ــ وإن استعلت السن ــ تلاميذ بالوصيد.

بيد أن محمود شاكر ــ عقاب العربية ــ كما يطيب لى نعته ــ كان الشاعر فيه يتدسس إلى كل كتاباته، وتحقيقاته فهما للنص وقراءة نافذة له،وما جارت ملكة على أختها إلا من حيث الوقت والتفرغ لأنه لو تفرغ للشعر، لكان قليل النديد نمطا وحده فى الشعر المعاصر، لكنه قال مرارا : لقد تركت الشعر لمحمود حسن إسماعيل، وما كان له أن يصنع لو أنصف نفسه، وأنصف الشعر، لأن محمود حسن إسماعيل من واد آخر غير وادى محمود شاكر، وغير وديان الشعراء الآخرين المعاصرين له، حيث تبرز أصالته وحدها دون زيف الصنعة أو التقليد وحسبه أن يكون صوت نفسه ؛ لئلا يسكت.

لكن هل سكت محمود شاكر ؟ الإجابة بالنفى، حيث كان لا يكف عن النظم، وإن طوى كثيراً منه فلم ينشره ربما كان ينشده لأصفيائه ونعتقد أن الشعر أو الفن عموما فى حاجة أن يذيعه صاحبه وأن يقتحم به المجالس ودور النشر وكان أبو فهرلايروق له مثل هذا الاقتحام حتى إنه لم يكن يتحدث عن قصيدة نظمها فى مجالسه وما أكثرها لائذا بالصمت أو بتغيير الحديث عن مجراه ونحسبه رزق الشعر ولم يرزق سياسة الشعر وكثير من خفاف الشعراء رزق هذه السياسة فتصدروا المجالس بوجوه وقاح ومات كلامهم وهم يحيون ،وشعر محمود شاكر نمط وحده حتى فى بداياته الباكرة، لأنه واقف وقوفا مذهلا على تراث أمته شعرها

ونثرها ولأنه ذو ملكة شعرية مرهفة مسنونة وأمامى الآن مجموعة ضخمة من القصائد المخطوطة تملأ ثلاثة دوادين على الأقل إضافة إلى «القوس العذراء» وهى نمط صعب مخيف فى التراث الشعرى المعاصر، وإلى ديوانه «اعصفى يا رياح» -تحت الطبع الآن- بعض هذه القصائد مؤرخ فى سنة ١٩٢٨، وتصحح المجموعة هذه مفهومنا عن شخصية محمود شاكر، حين نراه عاشقا حتى النخاع غزلا رقيق الغزل ، نافرًا ومبغضًا شديد النفرة والبغضاء، حتى إنه كان يزمع إصدار «ديوان البغضاء» وتلك القصائد الغزلة العاشقة لا نعتقد أنه كان يريد إخفاءها والتبرؤ منها إذ هو رحب الأفق عارف بالصبوة الإنسانية حين تستولى على ذى الحس المشحوذ مثله، وأشهد أنه إبان علاجه بإسبانيا نظم قصيدة غزلة فى حسناء من برشلونة ترجمت القصيدة إلى الإسبانية وطارت بها تلك الحسناء وكان بها جذلا سعيدا، مما يشهد بالطرب المركوز فى فطرته النقية الشريفة للجمال الآسر والحسن الموقع وكنت ألمح فيه هذا الطرب فى مشاهدة الرقص الفلامنكو فى اشبيلية بالذات، لأنه تنحدر من تلك الأصلاب العربية الكريمة ممن تذيبها الأعين النجل، وممن تفزع إلى الجمال فزعها إلى العلم والفقه والتفسير واللغة والأدب، لأنها كلها كتاب واحد نطالعه ونحسن مطالعته وقراءته وتذوقه.

وقصائد الغزل هذه تسلك صاحبنا مع الشعراء الغزلين الكبار، ليست غزلا نموذجيا مصنوعًا من قبيل رياضة القول أو من وادى غزل شوقى وأضرابه الذى كان يملأ الساحة بل هو غزل تجربة لا غزل ذاكرة فيه مواقف متباينة يلبس لكل حالة نفسية لبوسها فلا يشبه الصورة الموقوفة فى الشاشة المصورة بل هو صورة حية متحركة ، وهذا مما يحمد للشاعر . تبرز فى هذه المجموعة نغمة الإخوانيات لكنها غير الضيقة المحصورة حيث يتنفس فيها عبق المودة والصفاء والإحساس بجمال الصداقة ويسميها القدماء «غزل المودة» ويرونه أحيانًا أرق من «غزل الصبابة» وجهها الشاعر إلى عبد السلام هارون، وأبوالفضل إبراهيم وآخرين، إلى جانب القصائد الشاكية المتبرمة من حياتنا الآفلة ثقافيًا وسياسيًا.

لكن هناك مجموعة أخرى أطلق عليها «الحجازيات» استوحاها من إقامته الباكرة هنالك فيها وقوف على الآثار الشاخصة،وإن شئت الأطلال التى تتأشب فى ذاكرته

ووجدانه دون أن يكون مقلدا للوقوف على الأطلال لدى القدامى حيث يعاشرها وتعاشره، وفيها حنين أسيف واسترجاع لذكرى وجدانية تطفر بين الكلمات ولعله استوحى القصائد من حجازيات الشريف الرضى ولا تثريب عليه، لأن الحجاز لديهما مناط وحى وإلهام.

تطفر فى المجموعة نزعة مجددة فى التجارب والأداء إذ نظمت القصائد واتجاه الإحياء باسط ظلاله على الساحة ومع إعجاب الشاعر بشوقى والرفعى لكنه ليس بهما من جهة التجارب وإن كانت لغته قريبة النسيج من لغة الرافعى، إلا أنها أجود من لغة أستاذه وأوضح، ونعتقد أن نزعة التجديد الديوانى قد أثرت فى التيار الشعرى عموما حتى لدى البعث وجماعة أبولو، وفى شعر شاكر أمشاج من هذا التجديد غير أنى وقفت على تجديد شكلى تمثل فى الموشحات واللعب بها لعبًا جميلاً، حين كانت بعض الأشطار تأتى من كلمة واحدة - بالطبع قبل حركة الشعر الحر ـ ولها نظائر قديمة ونظائر فى شعر العقاد والمازنى وسيد قطب وغيرهم وهناك موشحة على نمط «جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس» نعتقد أن الشاعر عارض بها قدامى الوشاحين كابن الخطيب مثلا وإن كان شاعرنا مسبوقًا بشوقى لأن شاكر طويل اليد بالمعنى المحمود، وكانت الموشحات قد طبع بعضها من سنوات طويلة فى مصر، ومحمود شاكر واقف على المخطوطات فما بالنا بالمطبوعات ،وقد استلهم أبو فهر شخصية عبد الرحمن الداخل، وتلبث عنده وهى حلقة غير معروفة لدراسة استلهام الأندلس فى الشعر المعاصر.

يتبوأ أبو فهر بهذه المجموعة وبشعره كله مكانة باذخة شاعراً كبيراً من شعراء العصر، ولعل الباحثين يفسحون له حلقة مناسبة فى تاريخ الشعر، وهم له ذاكرون وشاكرون.

جمهرة مقالات محمود محمد شاكر

لا يزال أبو فهر محمود محمد شاكر شديد الحضور بيننا، أكثر ممن حضروا بأعاينهم، يلحون على الناس صباح مساء، ولا يكادون يذكرون، لأنهم يكتبون بأقلام لا رصيد لها من حس قويم ونظر صحيح.

وأبو فهر ــ عاريا من كل لقب ــ يساورنا ونساوره لأنه من رادة هذه الأمة، صحيح النسب إليها، لم يتلبس بسلالة مزغولة، صريح الدعوة والغيرة على قوامها، حين يتزيا غيره بأزياء ينكرها فى وحدته، إذا طاف به من صحوة الضمير طائف، لأن هذه الأمة شديدة العوز إلى من يستوى لديه السر والعلن، فلا يتدابران، وأبو فهر من هذا الضرب من الرجال الذى لا نكاد نعثر عليه الآن إلا بشىء غير يسير من العسر.

وأبو فهر رجل متعدد الملكات، تتصالح كلها فى كيانه، دون تنافر، فهو الشاعر ــ والشعر أكبر ملكاته عندنا ــ والمحقق، والمؤرخ والناقد، والمفكر، وكاتب المقال، وربما بدا للناس أنه محقق قبل كل شىء، حيث استغرق التحقيق من عمره السنوات ذوات العدد، لكنه ــ عندنا ــ شيخ المحققين، لأنه شاعر مبدع، فبان إبداعه فى كل ما خطته يراعة، وما هو بالقليل.

وقد ظهر له بعد رحيله ديوان شعر «اعصفى يا رياح» جمعه وقدم له صديقنا المحقق والناقد الدكتور عادل سليمان، وهو من حوارى الأستاذ شاكر ومن خاصته، ثم ظهر له «مداخل إعجاز القرآن» قدم لها ولده الدكتور فهر المدرس بآداب القاهرة، وللأستاذ شعر مخطوط كثير يملأ ثلاثة دواوين تمثل طرفًا قصيًا من حياته، قرأته بخطه، وفى حاجة إلى نشرة جيدة تقدم صورة الشاعر للناس.

لكن جمهرة مقالاته ــ وقد جمعها وقرأها وقدم لها العالم المحقق د. عادل سليمان ــ جهد كبير لا يقل عن تحقيق المخطوطات: حيث يقع على كاهل من جمعها عبء البحث عن مظانها، وتصويب القراءة: وعدم الوقوع فى أخطاء

الدوريات، وشرح ما غمض، وعمل الفهارس، وهو عمل قام به صابرًا محتسبًا عادل سليمان وفاء وذكرى، وجاءت هذه النشرة فى مجلدين بلغا ١٢٧٤ صفحة من القطع الكبير.

أول مفاجأة تقع عليها العين فى هذه المقالات أنها تبدد الصورة المعروفة لدى جمهرة غفيرة من الناس بأن الأستاذ شاكر رجل فرض على نفسه سياجًا كثيفًا من العزلة اليابسة، فلا يكاد يباشر الحياة الثقافية إلا من برجه، والرجل ــ حقيقة ــ قد اعتزل الحياة، لكنها الحياة الفارغة المليئة بالثرثرة، والطنين الأجوف، ومن ثم جاءته الحياة إلى معزله فأصبح مأنوسًا، كما صنع شيخ المعرة من قبله، مع حساب الفارق بين الرجلين، فى الصورة النفسية، حج إليهما كل قاص ودان، بعد أن ذاعت شهرتهما، وتقديرهما . تنتظم هذه الجمهرة كل ما مس أعصابه، وخامر فكره، من شئون الثقافة والفكر والفن والحياة العامة، وكل ما تموج به البلاد آنذاك، وما أكثر ما كانت تموج ، نظرًا لما كانت تحظى به الحياة الثقافية من حرية الإبداع والفكر، لقد كتب شاكر عن حياتنا السياسية فى ذلك الأوان شاكى السلاح فى مبارزة خصوم الحرية، وسياسة الاحتلال الإنجليزى، وتغلغل النفوذ الأجنبى فى حياتنا الفكرية، ترى هل كان الأستاذ شاكر يتحدث عن قضايانا العربية المعاصرة لنا الآن ؟ إن القارىء يخرج بمحصلة تقول : إن قضايانا لم تتغير كثيرًا بمرور الزمن، أو لعل من يثيرون هذه الأمور من الغربيين يغيرون أزياءهم،والجوهر واحد، والفرق كامن فى التسمية، وإلا يكن هذا صحيحًا، فلم نلوك ما كنا شغلنا به قبل قرن من الآن، وربما أكثر ؟

تحدث شاكر عن قضايا التعليم، وتفريغ الأمة من تراثها، باسم تطور التعليم، وبغيره من الأسماء وهى أشياء لا تزال تثار حتى الآن، لكن شجاعة العرض والتناول عند شاكر لا تزال تتنكر دون جهر، لدى آخرين ممن ليسوا فى قامته، أو ليسوا مؤهلين شخصيًا للشجاعة.

شىء أساسى فى القضايا التى يثيرها شاكر أنها ليست موقوتة بزمانها، وإن بدت كذلك، فالدعوة إلى الكتابة باللاتينية، والألفاظ المكشوفة فى التراث، ولشاكر فيها رأى أشجع من رأى من يدعون الحداثة ويكتبون عن الجسد ــ والفن

الفرعونى، ومباحث الاستشراق، ووزارة المعارف العمومية، والسياسة البريطانية، وغير ذلك من المباحث، ربما تقترن بأسماء أصحابها، لكن الرسالة باقية، بعيداً عن طريقة المقالات الصحيفة التى تلفظ أنفاسها بزوال مناسباتها.

وللكتابة الرمزية باب فى الجمهرة، حيث تخفى الأستاذ شاكر فى عباءة عمر بن أبى ربيعة، وأنطقه بما يريغ شاكر الإفضاء به، وليس هذا نكوصًا عن الكتابه الواضحة، أو استخذاء شجاعة، بل لأن للرمز شفوفًا وإيحاء ربما لا يبلغ التصريح مبلغه، فهو ذريعة فنية، وربما كان فى اختيار عمر بن أبى ربيعة ما يشى بأن الشاعر فى محمود شاكر يتقدم نظراءة كاتبا ومحققا، ويومىء ولو من بعيد إلى ما يعتمل فى وجدان صاحبنا من الهيام بالحسن وبمنارة الجمال، وكان شاكر الشاعر ــ كما ظهر فى قصائده المخطوطة ــ فيه هذا النزوع الذى يطرب للفتنة، وليس فيه الطبع الجاسى والحس الغليظ الذى يغلق المنافذ، ويوصد شرايين النفس إزاء الجمال، كما هو حال فئة كاذبة ضالة ومضلة، وللأستاذ شاكر رأى بائن العنف فى مثل هذه الفئات المنافقة، المتذرعة بمسوح تنكرهم، وتشف عن عوارهم وعوراتهم!!

وفى الجمهرة طائفة من المقالات عن المتنبى وقضية التذوق، وعن طه حسين وفتنة الشعر الجاهلى، وردود على مقالات تبين فيها حدة الموضوعية ــ وللموضوعية الصادقة حدة، لا موضوعية كثير من الجامعين الرخوة ــ ويتنزل شاكر أحيانا إلى بعض الصغار من الكاتبين، يرد عليهم ــ وكنت رجوته ألا يرد ــ غيرة على الحقيقة دون نظر إلى الكاتب ومكانته.

وليس فى طوق هذه الكلمة أن تحيط بما فى الكتاب وبما يثيره، وكله مثير، كشأن ما يكتبه الأستاذ شاكر حيث تخرج كلماته مخضلة بدم بهجته، وذوب فكره.

لكن ليس فى طوق الكلمة أن تغفل إيماءة إلى لغة شاكر، لأن العربية تختال مزهوة فى كلماته، دون معاظلة وعنت نجدها أحيانا فى لغة صفيه وأستاذه مصطفى صادق الرافعى، لأن لغة شاكر هى لغته المقدودة من أعصابه، وإن بانت فيها آثار

من كلام سابق، لا تنفى أصالتـه، وأشهد أن لغته مما يحببـنى فى العربية وتذكرنى بلغة الجرجانى، والتوحيدى، والعقاد والمازنى والجـارم فى كتاباتهما الباكرة نسبيًا، مع حسبـان الشيات الفارقـة بين كل كاتب منهم، وحسب شاكـر أنه طوع العربية للغة الدوريات ولقارئهـا الذى يختلف عن قارىء الكتاب والأسفار وأنـه أعاد الثقة إلى أبناء العـربية أو مكن لهذه الثـقة فى نفـوسهم، وتكاد تتـخطفها ريـاح الغربة والشتات فـيما هو حاضر ومـا هو آت، ولكن الغد مأمول بمثل هذه الجـمهرة من المقالات .

الجارم فى ضمير التاريخ
لابنه د. أحمد على الجارم

حسنًا أن يكون الجارم فى ضمير التاريخ بقلم ابنه ، وبأقلام أسرته الأدبية من غير ذوى رحمه ، وقبل ذلك كله بقلم الجارم نفسه ، والأمة تغبن نفسها أشد الغبن حين لا تدرك أقدار أفذاذها ، لأنها - والحالة هذه - أمة مقضى عليها بالبوار والخذلان ؛ لذلك تكون سعادتنا حين نطالع مثل هذا الكتاب الذى ينهض به بررة، وكم من ابن بار ، حده حسن النية ، ولا تشفع له بدخول حرم الأدب والنقد ، لكن كتاب الأستاذ الدكتور أحمد على الجارم ، حسن النية فيه ليس موجهًا إلى الوالد فحسب ، بل هو موجه إلى القيم الأدبية والإنسانية التى تمثلت فى الشاعر والروائى والعالم على الجارم ، وهذا كله مشفوع بتمام التقصى ، بحثا فى الأضابير والدوريات القديمة ، وهو عناء لمن يعرفه ، ومشفوع كذلك بمنهج علمى دقيق ، ونعتقد أن الدكتور أحمد الجارم أعدته مهنته أستاذًا بكلية الطب ، فهو يشرح ويحلل ، ويسدد مبضعه نحو الهدف المبتغى ، فيصيب ، ولا يعنى ذلك أنه يخلو من وجدان الأديب وحماسة المؤرخ ، بل كان منهجه العلمى مزيجًا جيداً من موضوعية العالم وتذوق الأديب .

والشاعر على الجارم من الراحلين الكبار الذين غبنهم زمنهم ، والزمن التالى لهم حتى الآن ، وهؤلاء ليسوا بخاسرين ، بل الخاسر هو الأمة التى يزيف وجدانها لحساب شرذمة تملك الضجيج والأبواق ، ورصيدها من الفكر والفن لا يساوى هذا الضجيج الذى تثيره ونعتقد أن حركة الشعر الحر ، والفكر الاشتراكى الذى ساد فترة فى تلك الأمة ، حجب كثيراً من فضل الراحل على الجارم ونظرائه، مثل : على الجندى ، ومحمود غنيم ، ومحمد الأسمر ، وأحمد مخيمر ، وعبد الرحمن صدقى وإخوان هذا الطراز ، وهم قمم باذخة إن غطاها دخان الدعاية الأسود فلا يفتأ بعض المخلصين أن ينفضوا هذا الدخان .

على الجارم شاعر من الطراز الأول ، ورائد كبير من رواد الرواية التاريخية ،

وعلم النفس والتربية ، وفقيه من حراس اللغة ! «وارث الأصمعى فى لغة الضاد، وفى الشعر وارث البحترى» ، كما يرثيه العقاد ، ومحقق وشارح للتراث العربى لا يمكن لكل هذه الجهود أن تمر بالأمة سدى؛لذا كانت فرحتنا غامرة لصدور هذا السفر الجليل ، الذى لا يمكن أن يغفل عنه باحث فى التاريخ الأدبى المعاصر ؛ لأنه جمع كل ما كتب حتى سنة ١٩٩٤ عن على الجارم الشاعر والأديب والعالم والمؤرخ والمترجم .

على الجارم شاعر درعمى ، وفرَّق العقاد بين شعر المحافظين وشعر مدرسة دار العلوم ، وإن التبس لدى البعض ، لأنك لا تنسى «اللغة» وأنت تقرأ شعر هذه المدرسة ، وربما استمر هذا الملمح الذى رآه العقاد ببصيرة نافذة لدى أبناء هذه المدرسة حتى الآن ، مرورا بمحمود حسن إسماعيل وعلى الجندى وغنيم ، والفيتورى والعنتيل ، وفاروق شوشة ، وآخرين .

لكن ثمة فصولاً توقفت عندها مليا ، وهى مناقشة الدكتور أحمد الجارم لبعض الكتابات التى تناولت والده ، والأبوة عند الأبناء البررة ربما تغلق منافذ الموضوعية فى النظر النقدى ، غير أن هذا المعنى لم أره فى تلك الفصول ، بل كان الحياد رائد الباحث وعدته .

لقد حاور المؤلف زكى مبارك ومحمد مندور فى كتاباتهما عن الجارم الكبير ، وأشهد أنه كان ينصف من يناقشه بعرض وجهة نظره بأمانة تامة ، ثم يأتى إلى أم القضايا فيفندها فى إخلاص موضوعى ، مبينًا مواطن الخلل فى الرؤية النقدية عند زكى مبارك ومندور ، ومن ثم يخرج القارئ فى النهاية مرتئيًا مدى التحامل ، والبواعث غير النقدية التى تحرك كلا الناقدين .

بيد أننى كنت أنتظر فصلاً يكتبه الدكتور أحمد الجارم ، ولا يستطيع غيره أن يكتبه ، وليكن عنوانه «على الجارم : صورة من قريب» يرسم فيه صورة الراحل العظيم فى داره ، وحياته الإنسانية البسيطة بعيداً عن العميد ، وعضو المجمع ، والشاعر الكبير ، وأستاذ الأدب والتربية وعلم النفس ، ونعتقد أن هذا الفصل وسام لا يقل عن الأوسمة التى تلقاها الجارم فى حياته ومازال يتلقاها من كل قارئ للعربية ، خالداً فى ضمير هذه الأمة .

الجارم صاحب البيانين

بلاغة النظم وبلاغة النثر قلما يجتمعان فى القرائح الإنسانية ، إلا لدى الأفذاذ، وهم قليل ، وتلك بداهة أكدتها الاستقراءات ، وحسبنا أن نذكر ابن الرومى والبحترى والمتنبى وإخوان هذا الطراز الذين عرفهم تاريخ الأدب من أصحاب النظم ، ولم يعهد لهم إبداع نثرى خارجه ، بينما يعرف أصحاب اليمينين من أمثال المعرى والعقاد والمازنى والجارم ، الذين أجادوا فى الفنين معًا ، دون أن تجور ملكة على أختها إلا فى حساب الكم والزمن . والجارم بك من ذوى البيانين ، فهو الشاعر البليغ ، والناثر البليغ أيضا فى رواياته ومقالاته وحتى فى ترجماته .

وكتاب «جارميات» فى طبعته الثانية - وجاءت ضعف الأولى أو أكثر - نمط وحده فى صياغته النادرة ، وإحاطته العميقة ، فهو طائفة من بحوثه اللغوية المذهلة ، كبحثه الرائد عن الترادف والأغلاط الشائعة ، والاشتقاق ، وهى عسيرة فى مادتها ، لكن الجارم شديد الصقل لعبارته ، فجاءت بحوثه شائقة مطعمة بالشاهد الشعرى أو الآبدة الطريفة ، أو النكتة التى تصيب المحز - والجارم رجل ظريف خفيف الظل ، سريع البادرة - ويسعف المؤلف محصوله الغريب فى اللغة، ويذهل القارئ متعجبًا : متى عرف كل هذا ؛ خاصة حين يدرك أنه من ذوى اللسانين العربى والإنجليزى ، ولا تقف هذه المعرفة عند حد الإدراك فحسب، بل إنها تحسن التفسير والتعليل ، وتصل إلى تخطئة القدماء على فضلهم، ومناقشتهم ندًا لأنداد ، مع الرعاية الواجبة لهم ، سلفًا كريمًا مجتهدًا.

وليس الكتاب بحوثًا فى اللغة فقط ، بل تراحب مشتملا على بحوث رائدة وعميقة فى تاريخ الأدب قديمًا وحديثًا ، حتى إنه وقف على عصور الضعف والركاكة مفسرًا ومعللاً ، ومن بحوثه التى التفت إليها الجارم بك تاريخ الأدب الأندلسى وتطوره وأداء المستشرقين فيه ، وأعلام هذا الأدب ، وهى بحوث متقدمة

زمنًا، حيث لم تكن المدرسة المصرية الأندلسية قد ابتعثت بعد إلى إسبانيا ، وهو جهد يحمد لهذا المؤلف الكبير ، إضافة إلى ترجمته «لقصة العرب فى إسبانيا» ، وهى ترجمة كأنها نبتت فى لغة العرب بفضل بيان الجارم . وفى الكتاب آراء نقدية مبثوثة فى تضاعيفه عن الشعراء المصريين أو الأدباء عموما مثل شوقى والمنفلوطى وحافظ وحفنى ناصف والشيخ عبد المطلب وولى الدين يكن وحمزة فتح الله وآخرين ، وهى آراء تشى بحصافة نقدية تضع هؤلاء موضعهم فى تاريخ الشعر والأدب الحديث ، لكن مقالته عن الشيخ حمزة فتح الله سنة ١٩١٧ نموذج وحدها؛ لأنها مرثية نثرية من عيون المراثى فى النثر تضارع المراثى الشعرية ، حين لم يسعف الشاعر الوقت لينظم مرثيته ، فصاغها نثرا ، لا أتردد فى ضمها إلى ديوانه دون أن أجعلها «قصيدة نثر» إلا بالمعنى الكريم لهذه التسمية ، وكم وددت أن استشهد ببعض سطورها .

فى «جارميات» سلسلة طريفة عن «الشعراء الذين قتلتهم أشعارهم» ، وطائفة عن أعلام الإسلام قادة وفاتحين ، وكلها مع نظائرها آيات شواهد على أن الجارم من رادة البحث ومن كتاب المقال المعدودين ، فى اللغة والأدب تكمل صورة الجارم الشاعر والروائى والمترجم ، ولولا أن يدًا كريمة من ابنه الأديب والطبيب النابغة د. أحمد الجارم ، لما تيسر للباحثين هذا السفر النفيس الذى عانى فى التنقيب عنه فى مظانه البعيدة والمجهولة معاناة هائلة يحمدها له البر بالآباء ، كما يحمدها له الشعر والشعراء ، والأدب والأدباء ، ترى كم من الأبناء صنع هذا الصنيع أو قريبًا منه مع الآباء .

ديوان الجارم فى طبعته الجديدة

أن يطبع ديوان الجارم ثلاث طبعات فى أقل من عشر سنوات ، وأن يكون مجمل النسخ منه يفوق عشرة آلاف ، فهذا له دلالة . ودلالته القريبة والمباشرة صالح الشعر الصحيح ،وفى صالح حضرات القراء ، حيث يقبلون على الشعر دون صخب ، أو ضجة إعلامية خاوية تبيع للناس بضاعة بغير ثمنها الصحيح ، خاصة أننا نعلم علمًا ليس بالظن أن بعض الدواوين لا تبيع مائة نسخة وثمنها رخيص مقارنة بديوان الجارم ، مع تمكن أصحابها من وسائل الإعلام والإعلان ، والفيصل فى النهاية حضرات القراء الألباء ، الذين لايخدعون ، وإذا خدعوا مرة فلن يلدغوا مرة أخرى !!

وديوان الجارم ظل حبيس الغبن سنوات طوالاً ، وحين كشف الغطاء أقبل الناس عليه ، ولعله يعيد للناس ، كما أعاد أولاً ثقتها فى الشعر ، ويكشف شيئًا من ظلام الأزمة التى تأخذ بخناق الناس ، وتسمى مرارا «أزمة الشعر» ، فها هو ديوان ضخم زاد عن ستمائة صفحة من القطع الكبيرة ، وبه هوامش شارحة ، ومضبوطة ضبطًا تامًا، وهو يملأ أكثر من خمسين ديوانا من دواوين هذه الأيام ، يطبع طباعة فاخرة ، ويجد من إقبال القراء ما هو متوقع إذا زالت غاشية الدعاية الرخيصة ، ووجه الناس الشعر حين يخلون إلى أذواقهم التى نظلمها حين نقول عنها : لقد صدئت ، وانصرفت عن الشعر ، ولم يعد الزمن زمن الشعر الآن .

أن يطبع ديوان الجارم بك بكل هذه المواصفات ، فإنه جدير بإعادة النظر فى كثير من مسلماتنا النقدية ، التى ركن إليها بعض النقاد ، وجدير أيضًا بمراجعة الأذواق والآراء التى اندست فى تاريخ الأدب - غفلة من الناس أو تغافلاً . وأجحفت ببعض الشعراء والأدباء ، وألقت عليهم سحبًا ثقالاً من الغبن الذى يطوى المحاسن ، أو يظهرها بغير وجهها الصحيح ، فها هو ديوان يصحح بعض هذه المسلمات ، وأن الشعر ليس بعناوينه ، بل بمحتواه فى التجارب والأداء ، وأن

الأوزان الشعرية صالحة للأداء والتجارب العصرية ، وأن اللغة الجميلة المصقولة التى لا تدابر القواعد ، بل تحتويها ، وتبدع فى إطارها لاتزال تطرب الوجدان والآذان .

نعتقد أن حضرات القراء سيرون فى هذا الديوان - كما رأوا بالفعل - صفة نظم الكلام عند الجارم ، وأن هيئات التراكيب تستوى فى نفسه نغمًا وموسيقى ، قبل أى شىء آخر ، وأن المناسبات هى مناسباته هو صادق فيها ومجيد ، وأن فيها شعرًا يتراحب بين الوجدان الصادق ، والحكمة المنتزعة من تجاربه هو ، وأن اللغة لديه ليس لها صفة - عندنا - غير الاختيال حين يدل الشاعر عليها ولا تدل عليه، لأنه رصفها الرصف الحاسم ، فاختالت هذا الاختيال ، وسيرون كذلك هذا الشعور المثقف المتأمل الذى يقتنص الأوابد الخفية ، فإذا بها سلسلة طيعة .

لعل فى لغة الجارم الرائعة ما يدفع الناس إلى الغيرة على لغة الشعر ، التى انماعت الآن ، بين التهافت وبين «ضرب الرمل» وما بين الفجاجة والتبجح بالخروج عليها ادعاءً وتخاذلاً ، ورغبة مأفونة عاجزة .

هل يمكن أن نغبط الجارم على أن قيض الله له وللقراء ابنا قليل النظر فى الأبناء وفاءً وبرًا . . هو أ. د. أحمد على الجارم الأستاذ بطب القاهرة ، فهو الذى سهر على تراث والده شعرا ونثرا ، ومن حسابه الخاص ، ليبقى تراثه بين يدى التاريخ كاملاً ، إننا نغبط الجارم الكبير ، ونرجو أن يحذو حذو الابن الكريم أبناء أدبائنا ومفكرينا الكبار ، حيث لدينا قائمة طويلة بالأبناء العاقين أو المهملين الغافلين ، ولا نريد أن نذكرهم فنفسد غبطتنا بصدور ديوان على الجارم بك .

الصورة الفنية فى شعر على الجارم

كتاب جيد فى موضوعه وفى تناوله لا يقف عند مألوف الدراسات المعدة سلفا، فتجىء كأنها إعادة ولادة وحسب أصحابها ، إذا صحت نسبتها إليهم أن يقفوا على المصادر الجاهزة ينقلون منها رابطين بين الكلام بروابط لاتشى بشىء من خصوصية النظر والمراجعة . أما الكتاب الذى نحن بصدده ، فمباين لهذا الطراز عن الكتابة مؤلفه الدكتور محمد حسن عبد الله أستاذ ورئيس قسم النقد الأدبى بجامعة القاهرة رجل له بصر بتصريف الكلام ومعالجة مضايقه ، يعالج الرواية والقصة القصيرة منذ أمد بعيد وليس من النقاد «الفضوليين» المحترفين ، الذين لاتسعدهم موهبة مبدعة فيقفون بالوصيد دون نفاذ إلى الأعماق ، وقد شفع ملكته بدراسات متعمقة فى النقد الأدبى والبلاغة .

والكتاب عن شاعر كبير قليل النظير فى حياتنا الشعرية ، لحقه غبن شديد طوال ثلاثين حولا وأكثر إلى أن أزيح عنه غبار الخمول الظالم بما أصدره ابنه العالم الأديب الدكتور أحمد الجارم من تراث والده شعراً ونثراً ، صار بين أيدى الدراسين الذين من أهمهم مؤلف كتابنا هذا ، وقد اختار زاوية مهمة جدا هى «الصورة الفنية» فدرسها : روافدها وطبيعتها وأشكالها وخصائصها فى موضوعية وتجرد ، بيد أنه لم يقف بالصورة عند مفهومها التقليدى من البيان ، بل فهم الصورة فهمًا جديدًا يخول لنا أن نطلق عليها «صورة هيئات الكلام» عند الجارم وتأليفه ومفرداته ومعجمه واحتشد احتشادًا حسنًا ؛ لأن الجارم بطبعه رجل جد وصرامة يعدى قارئه ودارسه بجده وصرامته فلا يملك عنهما حولا ، ولذا جاءت الدراسة مستوعبة من مدخل إلى الصورة من التقليد إلى الأداء النفسى إلى فلسفة الصورة إلى الصورة والكلمات وصور بلا ضفاف .

والذى يبحر فى شعر الجارم يلزمه أن يقارب قامة الجارم الواقفة على ذخائر التراث الشعرى بكل عصوره ، حتى الضعيف منها ، وكانت الرحلة عسيرة خاصة

مع روافد الكلام وصوره ، وقد تمكن المؤلف أن يلم إلمامًا حسنًا بمصادر الصورة وقال كلامًا جيدًا عن التشطير والتخميس وارتأى فى ذلك الأسلوب تفرد الجارم عمن سبقه، وليس التشطير والتخميس مرفوضين جملة بالعناوين ، بل توغل نافذًا إلى جواهر الكلام ، ورأى فيهما إضافة ،ووقف عند التضمين وبراعة الجارم فيه ، حين يجعل الشطر الأول المقتبس قافية فى قصيدته منوعًا بين المصادر التراثية التى تتقاطر على لسانه ، محتفظًا بوجهه فى زحام الوجوه ، وعكف على تجاوز الصورة المحسوسة إلى الأداء النفسى الخاص فى مقدماته الغزلية والطبيعية والرثائية وغيرها، وعرض للقصيدة المادحة وقال كلامًا منصفًا ، وتناول فلسفة الصورة ودلالة الكلمات مجتمعة ومفردة وتشكيل الأبنية عند الجارم ، ولم يغفل كلامه النثرى فى رواياته عن الشعراء خاصة ، وكيف ساعفه محصوله المذهل فى ملابسه حيوات الشعراء وشعرهم .

وختم المؤلف كلامه بمختارات من الجارم كاملة ليقف قارئه على نمط من الكلام التام ، وعلى الصورة الفنية كيف استقرت على يديه ، وقد قلت فى ثنايا هذه الكلمة إن شاعرنا قليل النظير ، وأقصد بذلك أن الكلام عنده فى استواء عجيب لم أره لغيره ، وأن الصنعة الفنية عملت عملها فى ملكته المفطورة ، وأن هيئات الكلام تعطو إليه منقادة بأجيادها ، فكأنه لا يعانى فى تأليف الكلام ولعله كان شديد المعاناة لأنه كان كما يقول راثيا : «فإذا تراءى ساكنا فلأنه فى أسرع الأحوال من حركاته » .

ونقاط الاتفاق بينى وبين المؤلف الناقد أبين من أن ينص عليها ، فهى كثيرة لا يغض منها أن نختلف قليلا حول نقاط أخرى لاتمس الجوهر ، وحسبى أن أرى أن «بداوة» الجارم التى قال بها المؤلف تناصيها عندى «حضريته» أو «مصريته» ببساطة النيل وسهولته وبروحه السمحة التى ظهرت أمارتها فى شعره ، والجارم هو :

«الأديب الذى له فطنة المصرى زانت سليقة البدوى» ، وحسبنا أن ندرك أن هذا الكتاب من الكتب الجيدة عن الشاعر الكبير .

عقـــاديات

اتصال الأستاذ العقاد بذاكرة الأمة غير موقوت بيوم رحيله أو مولده ، لأنه موشوج الأواصر بجوهرها أساس نهضتها ، لاتزيده المناسبة العارضة إلا توهجا ، تتطلبه الأمة فى لحظات الانتصار أو لحظات الانكسار ، وحين تخبو الجذوة فى وجدانها عليها أن تنفخ فيها ، وأن تستبطن أعراق النار وهى دائما تسعفها لأنها نار خالدة مبدعة ، وهكذا كانت نار العقاد ولاتزال .

وعلى قبس من هذه النار كانت مدينة النور للشاعر وللكاتب الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، وهو من القلة الصابرة التى تقرأ الشعر ، تفهمه وتتذوقه ، لأنها تحترق به - وقد صدر كتابه فى السلسلة الرائعة الذائعة «مهرجان القراءة للجميع» وترعاه السيدة الفاضلة سوزان مبارك ، ويعنى هذا أن الدائرة المتلقية تراحبت لتقرأ كلاما رائعا عن العقاد الشاعر ، الذى كان مضنونًا به على غير أهله ، وتتذوق شعر رجل ضربت بينه وبينها أسداد من سوء الظن بالرجل وشعره .

وكلام حجازى يشعرك لأول وهلة بالتعاطف الموضوعى ، وأنه كان مدخرًا منذ عقود ، مصحوبًا بشىء من الندم بعد استعلاء السن ، واستحصاد الملكة ، وزوال شرة الشباب ، وإن بقى منها شىء يدل عليها ، ويشى بها مسربلة فى كثير من اللوذعية واللباقة ، وهذا شىء حسن لأن زوال حدة الشباب تمامًا غير محمود على الأقل بالنسبة للشاعر المتوفز ، وهكذا كان حجازى وأضرابه من الشعراء الصادقين .

تسلل المؤلف إلى دار العقاد - حيًا - وصحبته فى رحلته الثانية بعد رحيله ، وطالت الجلسة التى وصفها فى كتابه نتذاكر العقاد والشعر وقضايا الثقافة عامة ، وشعرت ساعتها بأن حجازى لابد أنه كاتب عن العقاد ، وقد فعل وشعرت أكثر بعد قراءة مقالاته عن الشاعر العبقرى أن المؤلف كان يضع يده من قديم على عبقرية العقاد ، وأن حوائل حالت آنذاك عن جهره برأيه ، وإن عبر عنه بطريقة

معكوسة ، فى هـجائه العقاد شعـراً، وسمعت العقاد فى نـدوته ساخراً من ذلك الذى يقول عن الرجـل : أنه يعيش فى عصـرنا ضيفـا ويشتمـنا قائلا : من الذى يعيش فى عـصر الآخر ؟ ولم نـشعر أن العـقاد موجـوع ، وإن عبر تلاميـذه عن وجعـهم هم دون الرجوع إلى العـقاد فى هذه الردود وفى نظيـراتها ، كـما لمسناه مراراً، لكن الأستاذ حجازى حدثنى عن «تأشيرة العقاد» فى لجنة الشعر «تحول إلى لجنة النثر للاختـصاص» ، وكانت عـن قصيدة حـجازى لا كما شـاع ويشيع عن قصيدة عـبد الصبور ، ولعل حجازى قـد أشار إلى ذلك منشوراً بالأهرام - إن لم تخنى الذاكرة - وفى هذا دلالة على ارتبـاط حجازى بالعقاد ارتبـاطًا معكوسًا فى أوائل الشباب وارتباطًا طبيعيـا بعد ذلك ، وما لى لاأقول : إننى واثق من إعجاب حجـازى بالعقـاد إعجـابًا شديداً ، وأن الرجل ولايزال من كـبار مـريديه - على طريقته - وأنه مثَلُ دو أعلى بالنسبـة له ضمن مُثل عليا ، وهل أدل على ذلك إلا قوله: إننى لو كتبت سيرة أديب عربى لكان العقاد صاحب هذه السيرة ، والا فتنته بصاحب السيرة شخصا وشاعرا ومفكرا وإنسانا . وإننى لألمح فى مقالات حجازى عن العقاد ما لم ألمحـه فى مقالاته عن آخرين جمعهم كتـابه ، بل أحس إحساسًا غريبًا بأن كتابات حجازى عن العقاد فيـها تلك الروح الفروسية التى أحسستها فى كتابات العقاد عـن الإمام على كرم الله وجهه ، وأن كتابات حجازى الـنثرية فيها من صلابة بنيانه الوثيق - خاصة مقالاته عن الشعر والشعراء - ما فى صلابة بنيان العقاد ووثاقته .

وأزعم - وليس الزعم مطية الكذب - أن مـقالات حجازى عن العقـاد الشاعر من المقالات القليلة ، التى تذوقت شعـر الرجل ووقفت على أسراره العليا ، وإن وقفت يسيراً عند الشكـل الشعرى فى قصيدة «ترجمـة شيطان» ، الذى ارتأت فيه رتابة ، ونحن نعـتقد يقـيناً أن الرتابة تخلقهـا تداعيات الشكـل الحر ، وأن النظام الصارم كما وصفه حجازى يعصم القصيدة من تلك التداعيات والموسيقى «السايبة» ربما تشيل أحيانا كـفة الشاعر ، لكن النظام لا تثريب عليه ، كـما وقفت المقالات عند تأثرات العـقاد بـأمشـاج من الفكر الأوروبى ، ولا جناح عليـه وليت المؤلف أشار إلى هضم العقاد لهذه التيارات ، كما يهضم الأدباء الأصلاء فى كل الدنيا ،

غير أن هـذا لايشيل من كفة المقـالات المستوعبـة ترفدها ملكة شاعرة نـاقدة وافرة المحصول من المنظوم والمنثور على السواء .

من الكتابات التى يحسن عندها التلبث، ما علق به الناقـد الكبير الأستاذ رجاء النقاش على ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوى بعنوان «علقة للعقاد» .

والدكتور بدوى يكره العقاد كراهة تحريم ، كما يقول الفقهاء ، ولا يطيق سماع اسمه ، وهو حر فى وجدانـه ومشاعره ، مادامت لاتتعلق بقضايا شـخصية وأدبية تمس تاريخ الآخرين ، وكان العـقاد - كما عاشرناه - لا يضن عليـه بمثل مشاعره وإن لم تبلغ مـبلغ الكراهيـة، وكانت تعلـيقـات العقـاد اللاذعـة تصله عن طريق تلاميذه فى الندوة ، وكان العقاد يراه «حالة نفسية» على حين كان يقدر رجالاً مثل الأساتذة : مـحمد غلاب ، وزكى نجيـب محمود ، وعثـمان أمين ، يقدر فـيهم الفهم والاستقامة فى النظر ، واستـواء الشخصية وكان يضم إلى بدوى على سامى النشار ، ولم يسـتطع بدوى أن يقول فى العقـاد كلامًا وهو حى ، فاغـتنم رحيله وكتب ما كتب فى مذكراته ، ومنها حديث «العلقة» الذى علق عليه رجاء النقاش، ووقف موقف الحذر والحيطة ، وكان مبلغ قوله ، ماذا لو صنع أحد خصوم بدوى ما صنعـه بدوى مع العقاد ، وضـرب أستاذ الفلسـفة علقة ؟ وقـد رويت كلمات رجاء بالمعنى فليس النص أمامى الآن ، وكـان أولى بالأستاذ رجاء - وهو من هو حصافـة - أن يستنكر هذه الرواية جملة وتفـصيلا ، لسبب بسـيط جدا ، هو أن العقاد لا تثنيه عـلقة عما يعتقده ويبـوح به ، ولم يثنه السجن ، وهو أشد وأنكى ولو كانت وقـعت هذه الحادثة لما خفيت هذا الخـفاء ، خاصة أن العقـاد لا يعيش هملا فى قرية من قـرى النمل وحديث العلقة كان لابد أن يـذيع وأخفت منه سرا ينتشر ، وخصـومه يتربصون به فيذيعونه من قبـيل النكاية والمعايرة ، ونحن نعرف «عام الكف» الذى حدث فى مطلع القرن «وعـام كف» آخر كان منذ سنوات قلائق عرفتـه الصحف والنشرات ، وهذا عرف لأنه وقع لشـخصيات معـروفة ، وتوافه الأخبار عن الفنـانين والأدباء تتناقلها الألسنة ، وقد تناقل الناس أيضـاً حديثًا عن «علقة» للعقاد «بالبـوكس» وسمعتها من صاحبهـا المرحوم عمر الدسوقى لا يكف الرجل عن إذاعتها فى الجامعة ، وكأنها مجد شخصى له يفوق مجد العقاد، وكان

يسرد أيضًا أخبارًا عن مجون العقاد ، وكلها كانت «نقيضة الصدق» كما يعبر الأستاذ محمود شاكر عن الصفة المرذولة ، وكنا نبتسم ونغالب الضحك الصاخب توقيرًا للأستاذ ، وكان يدرى أننى من مريدى العقاد ولا يراعى هذه الحرمة لياقة فقط ، لكن الرجل اعترف بغيظه من العقاد ، وأن الناس يلتفون حوله حبا وولاء، وهو أفنى عمره لم يجد مثل هذا الحب وكانت لحظة صدق رائعة تغمدت «نقيض الصدق» بالصفح الجميل ، ولم يصل إليها بدوى حتى فى تلك السن سن المراجعة، وقد وصل لكاتب هذه السطور رذاذ من كراهية العقاد ، حيث التقيت به فى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، وعرف أننى أدرس العقاد الشاعر مقارنًا بشاعر إسبانى ، فازور قائلا : وهل العقاد شاعر ! فقابلته بازورار أشد ، وكان الأستاذ رجاء النقاش أولى منى بأن يصف ما قاله بدوى «بنقيض الصدق» بأخف تعبير ، ولعله لم ينس - أى رجاء - هجوم الإخوان على العقاد بإطلاق الرصاص فى مسكنه وظلت فجوة الرصاصة فى النافذة شاهدة على فراغ هذه الأدمغة الممسوخة . . ولم يتخل العقاد عن هجومه بل تابعه بإصرار وعنف شديدين ، أما كانت الرصاصة أوقع من العلقة البدوية الساذجة التى تشهد على صاحبها «بنقيض الصدق» وهل ينتظر رجاء - وهو عزيز على - «علقة» ولو فى الوهم حين وقف بالوصيد ، ولم ينف الواقعة أصلا ونفيها أقرب إليه عقلا ووجدانا وواقعا !

وللعقاد صالون فى القناة الثامنة يشهده الناس أسبوعيا يستضيف رادة من الفكر واللغة والأدب بجانب المقربين من العقاد شخصيا ، يحيون بعض أفكاره كما يرون مؤيدين ومعترضين ، وتلك آية كريمة من آيات العقاد فى الدعوة إلى حرية الرأى التى ترى أن خطأ الحرية خير من صواب التقليد والعبودية ، وحسنًا يصنع القائمون على القناة الثامنة فى هذا البرنامج حين يشفعون حديث الضيوف بكتب العقاد ومشاهد حياته وإذاعة مناظر من الحلقة اليتيمة ، التى صورت فى حياة العقاد ومقاطع من شعره ونثره ، غير أن بعض الحلقات استضافت من لم تتجاوز معرفته بتراث العقاد معرفة العوام وأشباه العوام ، فيخلط بين كتبه وكتب غيره ، ويذكر للعقاد كتبا لم نسمع عنها مطلقا . . لكن البرنامج ثقافى ممتع حتى لأواسط الناس وقد قرب برامج الثقافة والرأى من جمهرة المشاهدين ، حيث يتم إلغاؤها

حين تتعارض مع برامج جماهيرية فى قنوات أخرى ، ويقدم دليلاً واضحًا على أنَّ الجمهور تروق له الثقافة كما تروق له المتعة بل ربما تشوفه الثقافة ليربط نفسه بفئة أخرى ، تميزه ، ويبطل دعوى «الجمهور عايز كده» وليس لدينا توكيل من الجمهور يؤكد مثل هذه الدعوى الواضحة البطلان ، وربما يكون من المناسب أن يذاع الجمعة موعد ندوة العقاد بالقاهرة أو الثلاثاء موعد ندوته بأسوان إيهامًا بالحقيقة تحية لهذا البرنامج الجاد .

إن هذه العقاديات أكف تلهب أدمغة مهزولة ، يروق لها أن تتخفى وراء طيلسان العلم ، وتتقيأ كتابات لاتعرف إلا سوق النخاسة ، ومساومة المنافع الحقيرة، وهى فى الوقت نفسه دعوة حارة مخلصة ، تطارد خفافيش باسم الدين وباسم السياسة وباسم الأدب لأنها من النور جاءت وإلى النور تقود ، من العيون وإلى العيون .

مدرسة للعقاد فى الأدب المقارن

الأدب المقارن مصطلح حديث نسبيا فى أوروبا ، وأكثر حداثة فى العالم العربى، وتتوزعه مدرستان : المدرسة الفرنسية أو التاريخية ، والمدرسة الأمريكية أو النقدية وتأتى - تاريخيًا - بعد الأولى .

ولعل العقاد - عندنا - سابق على المدرسة الثانية سبقاً يحمد له ، ويقترن باسمه قبل رواد تلك المدرسة التى قلبت مقاييس هذا الفرع من الدراسة ، وإن غابت هذه الحقيقة عن الدارسين جميعًا ؛ إذ لا يكادون يذكرون عن العقاد هذا الاهتمام المبكر جدًا، وتطبيقاته فى مقالاته التى نشرها فى مطالع هذا القرن .

ترى المدرسة الأمريكية - ورائدها رينيه ويلك ١٩٠٣ - أن اقتصار الدراسة المقارنة على مسائل تأثر أدب ما بأدب غيره أو تأثيره فيه تضييق لا مسوغ له ، وأن الظروف المتشابهة فى بلدين ، وتشابه القرائح حين تتجه لمعالجة موضوع واحد يمكن أن تقوم بها دراسة مقارنة ، بصرف النظر عن الالتقاء التاريخى ، وتأثير أدب فى أدب آخر .

وقد هلل كثير من الدراسين حتى بعض الفرنسيين أنفسهم لهذا الاتجاه الجديد ، الذى بشر به ويلك فى دراسته «أزمة الأدب المقارن» ١٩٤٩ ، ورأوا فيه فتحًا جديدًا .

والحق - دون تعصب عرقى أو مدرسى - أن العقاد سبق (ويلك) بسنوات طوال فى تطبيق هذا الاتجاه ، وإن كان لم يذكر مصطلح الأدب المقارن .

فى سنة ١٩١٦ نشر العقاد مقالين - فى مجلة المقتطف سبتمبر ونوفمبر - عن أبى العلاء المعرى مقارنًا بينه وبين دارون ، وشوبنهور ، وكيف أن شيخ المعرة تحدث عن مذهب النشوء ، وتنازع البقاء حديثًا غير عابر كما تحدث عند دارون، مدللاً على ذلك بنماذج من شعر أبى العلاء وأقوال دارون ، ثم عرض العقاد

لتشاؤم الشاعر العربى والفيلسوف الألمانى شوبنهور ، مستشهداً بنماذج من كلامهما ، وانتهى العقاد إلى قوله فإذا قيل إن دارون واضع المذهب فى عالم العلم، ساغ لنا أن نقول : والمعرى واضعه فى عالم الأدب والشعر.

وارتأى العقاد أن اتفاق مزاج المعرى وشوبنهور دون اتفاق عقلهما هو وراء تشاؤمهما ، ورأفتهما بالحيوان ، ووفائهما لوالديهما .

وفى مقالة له فى كتابه «الفصول» ١٩٢٢ عن الغزل الطبيعى قارن مقارنة ذكية بين شعراء الغزل من العرب مثل عروة بن حزام ، والمجنون ، وجنادة العذرى ، وجميل وكُثير ، وبين كاتيولس الشاعر اللاتينى (ت ٥٤ ق. م) واستشهد بأقوال هؤلاء الشعراء مرتئيًا فيها تعبيراً صادقًا عن لوعة العشق وشواظه ودخانه بعيداً عن الرقة والدماثة ، التى شاعت لدى شعراء الصنعة ، وهى «حقيقة اتفق عليهما شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن ، ولكنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة» .

وفى مقال له بجريدة البلاغ ٧ يناير ١٩٢٤ ، يقارن بين المتنبى والفيلسوف الألمانى نيتشه فى فلسفة القوة ، ويعجب العقاد لهذا التقارب فيقول : «إن آراء شاعرنا وأراء المفكر الألمانى تتفق فى مسائل كثيرة اتفاقا توأميا لانعلم أعجب منه اتفاقا بين نابغين مفكرين ، ينتمى كل منهما إلى قوم وعصر وحضارة ولغة ، غير التى ينتمى إليها الآخر : تتفق فى مقاييس الحياة ، وقيم الأخلاق ، وصرامة العبارة ، وتفاصيل وجزئيات شتى . . . ووجهة النظر على الأقل متحدة فى كل ما نظم الشاعر ، وخط المفكر من المعانى الخاصة والعامة ، فمن قرأ المتنبى ثم قرأ نيتشه ، لابد أن تكر الذاكرة به إلى كثير من أبيات المتنبى ووقائع حياته ، كلما قلب الطرف فى صفحات نيتشه من رأى إلى رأى ومن خطرة إلى خطرة ، ولابد أن يشعر وهو ينتقل من أحدهما إلى الآخر إنه ينتقل فى جو واحد ، وبيئة واحدة».

وقد ردد هذا الرأى المستشرق الإسبانى غرثيه غومث فى دراسته عن المتنبى وشعراء الأندلس - ترجمها دون أن يشير إلى العقاد ، ونظن أنه قرأه ، وهو فى مصر طالب بعثة ، أو بعد ذلك .

ولم يغفل العـقاد اتجاه المدرسـة الفرنسية - وهو مـسبوق به - فى حـديثه عن الديوان الشرقى للشاعر الألمانى جيتى ، وكيف أنه تأثر فيه بشعراء الشرق وبخاصة حافظ شـيرازى - وديوانه مترجم للألمانيـة واطلع عليه جيتى - وارتأى الـعقاد أن ظروفا ثقافـية ، فى ألمانيا ، كانت تدفـع مثل الشاعر الألمانى جيـتى - وله ظروفه الخاصة أيضًا - إلى أن يولِّى وجهه شطر المشرق (انظر بين الكتب والناس) .

لذلك كـان من العجب أن يتـحدث الدارسـون عن الأدب المقارن فى مـصر ، وعن رواده مثل فخرى أبو السعود وأحـمد ضيف ، وغنيمى هلال وآخرين ، وأن تنشر دراسات عن المدرسة الأمريكية ، والعقاد عندنا سابق لها بفترة كبيرة .

وحسبنا أن نعلم أن مقال العقاد عن المعرى وشوبنهور ودارون نشر ١٩١٦ حين كـان رينيه ويلك فى الثـالثـة عشـرة من عمـره ، وتوالت دراسـاته - وصاحـبنا الأمريكى فى دور الصبا واليفـاعة ؛ مما يدل على أن الفكرة غير طارئة ، بل غائرة الجذور فى أعماقه ، والعقاد - فيما نرى - من ذلك الضرب من المفكرين والأدباء الذين يقفون على جواهر فكرهم منذ شـبابهم المبكر ، وجل ما يأتى بعد ذلك إنما هو تعمـيق لأشياء وضـعوا أيديهم عليهـا من قبل ، أو تطوير لها دون مـساس - تقريباً - بجوهر الفكرة .

ولا يدفع هذا القول بسبق العقاد للمدرسة الأمـريكية أن العقاد قارن بين شعراء وفلاسفة ، فإن هذا ما دعت إليه أيضـاً المدرسة الأمريكية ، كما لا يدفع أيضاً أنه لم يذكـر مصطلح الأدب المقـارن ، فهذه مـسألة شكـلية ، وماذا فـى اسم مادام المضمـون معبراً عنه بمثل هذا النفـاذ والدقة ، وهما صفـتان يحظى منهما الـعقاد بأوفى نصيب ، ولعل دارسينا لا يغفلون هذه الحقيقة ، فيذكرونها ، وصاحبها فى غنى من السبق عن الثناء .

الفكر الإسبانى والعقاد

لم يعرف التاريخ الحديث أديبًا أثار الجدل والخلاف حول شخصه وإنتاجه ، مثلما فعل العقاد وهذه إحدى دلائل العبقرية التى ظفر منها العقاد بأوفى نصيب .

لقد أرسى العقاد دعائم النهضة الأدبية الحديثة وحطم أصنامًا كثيرة فى سبيل هذا الإرساء . ولم تغفر له تلك الأصنام انتهاكه لقداستها المزعومة ، عاش فى بيئة تعبد الأصنام . . أصنام الوجاهة الاجتماعية ، أصنام الألقاب العلمية . . أصنام المال والشهرة ، وهو المتواضع المنبت ، لم يحرز جاهًا ولا مالا ولا شارة اجتماعية ولا لقبًا علميًا بل استعلى فوق كل هذا .

ولو لم يصنع العقاد إلا أنه صنع لنفسه مكانته أديبًا وإنسانًا كريمًا على نفسه ، لكفاه هذا بصرف النظر عن النتاج الأدبى والفكرى ، فكيف وقد حاز كل هذا معًا . .

أحاط العقاد إحاطة غريبة بالتراث الإنسانى ، ولم يكن يقف إزاء الثقافة الغالبة موقف الذليل العاجز ، بل موقف المستوعب الناقد فى الرؤية الخاصة . . والمدهش أنه لم يصنع هذا مع الثقافة الإنجليزية التى يجيد لغتها ، ولكنه تناول إسبانيا من وجوه متعددة حين كان العالم العربى كله لايكاد يعرف شيئًا عن أدبها وفكرها ، ولعل أول كتابته عن إسبانيا كان حديثه عن ديكتاتورية بريمودى ريبيرا فى كتابه «الحكم المطلق فى القرن العشرين» ،الذى حلل فيه شخصية الرجل وسياسته والظروف التى أحاطت بتوليه مقاليد الحكم وأدان استبداده ، كما نشر فى عام ١٩٢٨ مقالاً عن الروائى «بلاسكو إيبانيث» بمناسبة وفاته،حلل أدبه وعقيدته ومنهجه فى الإصلاح ، ثم توالى اهتمامه بالأدب الإسبانى . . فأشار إلى الأندلس فى كتابه «رجعة أبى العلاء» وفى كتابه «عقائد المفكرين» فى القرن العشرين تحدث عن عقيدة الشاعر المفكر ميجيل دى أو نامونو . وبعد حصول الشاعر الإسبانى (خوان رامون خمينث) على جائزة نوبل ، أفرد له العقاد كتابًا ضخمًا ، تحدث فيه عن الأدب الإسبانى عامة وعن الشاعر خاصة ، كما قدم نماذج من أشعاره ترجمها

عن الإنجليزية ، وساعدته ملكته الشعرية على الولوج إلى دخيلة قلب هذا الشاعر الإسبانى .

وليست هذه هى المساهمة الوحيدة للعقاد فى الاهتمام بالفكر الإسبانى ، بل هناك مساهمات أخرى ليس هذا موضوع الحديث عنها .

وكان من المنطقى أن يهتم مستشرقو الإسبان بما كتبه العقاد عن أدبهم ، لكن ما حدث لم يكن منطقيًا . . فهم يعرفون العقاد كاتبًا كبيرًا ، وقد أطلق عليه الأستاذ بدرومارتينث اسم (بطريرك الأدب العربى) . . لكن اهتمامهم بالعقاد كان سطحيًا وغير كاف ، وقد ترجم له مارتينث ، وهو رائد الاتجاه الاستشراقى المنصف للفكر العربى الحديث قصيدة (نفثة) .

فما إذن سر هذا التجاهل والنفور ؟

سره هو العقاد ذاته . فمن عيوب العقاد أنه عظيم متفرد ، يشعر من سواه بالضآلة ، سواء كان عربيًا أم أعجميًا . . يضاف إلى ذلك هذه الحملة الضارية التى شنها على المستشرقين . . أضف إلى ذلك حميته ودفاعه عن الإسلام ولغة العرب، وهذا شىء لايرضاه كثير من المستشرقين بل ويقابلونه بالمناجزة الخفية ، وقد تمثلت فى الإعراض عنه وعدم التعريف بأدبه . ثم إن العقاد عسير الفهم على الأعاجم ، وثمة شىء آخر بالنسبة للإسبان هو اتجاهاتهم المحددة . . فهناك اتجاه يهتم فقط بالأدب الأندلسى ، وإذا تخطاه . . فإنما لمجاملة شخصية أو مأرب عاجل، ويرود هذا الاتجاه غرثية جومث ، وقد ترجم «الأيام» لطه حسين و«يوميات نائب فى الأرياف» لتوفيق الحكيم .

والاتجاه الثانى ويروده بدرومارتينث لايتجاوز نطاق الأدب الحديث ، ويولى اهتمامًا أكثر للشعر الحر والتيارات المستغربة فى الأدب العربى.

أما الاتجاه الثالث . . فيهتم بالعلوم فى الأندلس ويتزعمه خوان بيرنيت، ونتاجهم متعدد فى الفلك والطب والزراعة فى الأندلس الإسلامى .

هذا هو سر التجاهل والنفور من العقاد ، وللأسف ليس موقفنا فى مصر والعالم العربى عامة - وهو ابن هذا البلد - بأفضل من موقف الإسبان منه، حتى إنه ليخيل إلينا أحيانًا أن العقاد لم يمر بهذه الأمة.

عقـــدة العـــقاد (١)

تحطيم العـقاد للألقاب والبـرامج الدراسيـة وطبيعـة الفروسـية فيـه، جلبت له مواقف مناوئة ، من حملة مباخر الألقاب ، ومباخر الحسد ، وكأن العقاد يذكرهم دائماً بما هم عليه ، فهم فى محنة أو عقوبة يصدرون عنها حين تفوح فى كتاباتهم صديداً ، ومـعظم هؤلاء ما كان العقـاد يوليهم حتى نظرة السـخرية والازدراء . . نحن لانريد للعـقاد التطويب والقـداسة ، ولكن نـود أن تكون الدراسة مـتشـحة بالحياد والإنصاف .

تعرض العـقاد فى حيـاته وبعدها لطائفـة من التناولات ، ربما تغرى بالابتـسام لضآلة التناول وقائليه ، ولولا أن الجيل الناشىء نخـشى عليه لما أعرنا هؤلاء مجرد التفات .

يركن بعض الناس إلى الإشاعات وسوء القـالة ، ويركب موجة العوام ، يقول بعض المنتسـبين إلى الإخـوان: إن العقاد كـان يعقد نـدوته وقت صلاة الجمـعة، ويوشى كلامـه ببطولات صنعها مع العـقاد هى الزيف بعـينه ، ويعرف من اتصل بالعقاد أن نـدوته تنفض قبل الصلاة بوقت كاف ، ثم إن هذا سلوك شـخصى بين الإنسان وربه ، ولا يؤخـذ العقـاد إلا بفكره ، وعلاقتـه بالله وفرائضـه لا نسأله عنها، وإلا أخذنا دور الخالق !!

وأستاذ جامعى آخر يقف بتاريخ الأدب الحديث حتى مدرسة البعث والإحياء ، ويكره أن يذكر العقاد فى محاضرته ، ويوشى كلامه ببطولات زائفة حدثت له مع العقاد ، وأنه ضرب العقاد «بالبوكس» !!

وهناك فئـة من الجامـعيين ، يركنون إلى الأقـوال الشائعـة عن العقاد روجـها أساتذتهم ، لا تستنـد إلى دراسة موضوعيـة وخاصة عن العقاد الشـاعر والناقد، وهؤلاء مظلومون فى رأينا لأنهم أذابوا أنفسهم فى أسـاتذتهم إن صدقا وإن زيفا ، وربما كـان هناك مـوقف شـخصـى حدث لأسـاتذتهم مع الـعقـاد ، أو مـوقف

أيديولوجى، فتزور آراؤهم عن الحيدة والأكاديمية ، وكأنهم يثأرون لهذا الطيلسان الجامعى الذى مزقه العقاد بالشهادة الابتدائية ، وهناك رجل من هؤلاء لا يلتفت إليه أحد إلا تلاميذه الصغار رغبة أو رهبة ، يكتب ليحقد ويحقد ليكتب ، ولا تجد لكتاباته إلا وجهًا واحدًا هو تعرية العقاد من الأصالة، ويظل يدور بين القديم والجديد ، والجديد والقديم ولايعبأ به أحد ، ويحاول أن يختلق معركة غير ذات موضوع ، وهو مجرد نموذج لنظرائه من حملة الألقاب التى شاعت فى الزمن الأخير بلا مضمون ، وأنقصت من قدر اللقب الكريم !!

وقد سمعنا بعض هؤلاء الأساتذة وهو يخطئ أخطاء فاحشة فى قراءة الشعر نحوًاوعروضًا، ومع ذلك وجوههم مدرعة لا تعرف للخجل حمرة !!

بعض الجامعيين أيضًا لا يرى العقاد مفكرًا أو مؤرخًا محترفًا ، وكأن المفكر والمؤرخ وغيرهما فى حاجة إلى الدكتوراه ليؤخذ بفكره وتأريخه ، وقد غدت مركبا ذلولاً لكثير من التلاميذ الذين حملوا هذا اللقب ، وظلوا تلاميذ بدرجة أساتذة ، وكأن ابن رشد ، والكندى ، والطبرى وابن الأثير وأضرابهم فى حاجة إلى الدكتوراه ، أى قول هذا !!

نزعم أن العقاد لم يُقرأ بعد قراءة صحيحة ، وبخاصة من ذوى العاهات ، لكن هناك فئة صابرة من الجامعة وخارجها قدرت العقاد ، اتفقت معه واختلفت ، لأنه لا عاهة عندهم ، أو تخلصوا منها ، وروأوا أن التقدير يضاف إلى مزاياهم الشخصية قبل أن يضاف إلى العقاد ، وفى صدارة هؤلاء طه حسين - وليت تلاميذه تعلموا منه هذا الإنصاف الذى أدرك قيمة العقاد، وكلامه عنه ذائع معروف. ومنهم أيضًا محمد غنيمى هلال ، وعثمان أمين ، وزكى نجيب محمود، وأحمد هيكل ، والطاهر مكى ، ومحمد أبو الأنوار ، ومحمود الربيعى ، وإخوان هذا الطراز من الجامعيين ، الذين يشرفون اللقب قبل أن يشرفوا به ، تستوى فى ذلك دراساتهم عن العقاد أو غير ذلك من مناحى الفكر والفن الأخرى، ومثلهم من خارج الجامعة - وهو مجرد تمثيل لا حصر فى المجالين - سيد قطب وعبد الرحمن صدقى ، وعلى أدهم ، وأحمد عبد المعطى حجازى ،

وفاروق شوشه ، وأحمد عبد الغفور عطار ، وأنيس منصور ، وسامح كُريم وبقية هذا الفريق.

ولعل المجلس الأعلى للثقافة فى احتفاله الأخير بالعقاد ، قد فك بعض العقد، التى يلفها البعض حول نفسه إزاء العقـاد ، حتى ولو تحدثوا بها ، فمجرد حديثهم شفاء لهم ، ولعل اجـتماع المتحـدثين من كل الاتجاهات فى تلك الندوة دليل حى على السماحة النفـسية والفكرية ، التى يتمتع بها الدكتور جـابر عصفور ، ودليل حى أيضـاً على أن العقـاد يسـره مناوئوه كمـا يسـره موالوه ، وأنه فـارس يثيـر الإعجاب والإنصاف ، كما يثير البغض والاختلاف .

عقـــدة العـــقاد «٢»

لاتظـلمـــوا الموتى وإن طـال المدى

إنى أخـــاف عليكـم أن تلتـــقـــوا

المعرى

أخفق الأستاذ حسين أحمد أمين فى أن يكتب مقالا متسقا ، متلاحم الجوانب، بل جاء كلامه مفـتعلا ، مفتقرا إلى الإحكام ، وإلى اللمسة الشخـصية المتفردة ، وهذا نص كلامـه فى آخر مقـالة عن العقـاد فى جريدة القاهرة ١٦ من سـبتمـبر ٢٠٠٣ ، منقولا عن جريدة الحـياة ، وجاءه الإخفاق - لا الفشل كـما قال هو - من أن ملكة الكتابة حتى فى مجرد الثرثرة والذكريات تفتقر إلى نظر يرى الأسباب والعلل ، ويحاول أن تسلمه باتسـاقها إلى النتائج المرجوة والمنطقـية ، كما أنه من الشائع المتواتر أن مهنة الكتابة لاتورث كالعقار ولو كان الوالد فى قامة أحمد أمين، وثمـة أسمـاء باذخة فى تاريخ الفكر والإبداع كـأنما حظيت بالغنم وحـدها ، فلم يرثهـا ذووها حتى إرث كـلالة. لانعـتقـد التطريب والقـداسـة فى شخص أحـد ولافكره، و«قابلية »الخطأ فى النحائز البشرية من الفطرة التى ذرأ الله الناس عليها، ولسنا جـميـعا مـؤهلين إلا للنزوع للكمـال لا بلوغـه ، ومن ثم عذاب الإنسـان الواصب ، وعزاؤه أيضـا ، والعقاد أحد أفـراد الإنسان الذى عاش يحارب الحـمأ المسنون ، فى الخلق الإنسانية، وأن يتطهر بهـذا الشواظ الذى يحرق الحمأ ، هكذا يكون الإنسان فى معراجه ، وتلك ضريبة ذلك المعراج .

حفل كـلام الأستاذ حسـين أحمد أمين بكـثير من الأغلاط التى لانخـالها من وادى سوء النية ، ولا نريغ سـوى الإشارة إلى بعضها ، لقد خلط الأسـتاذ عملا صالحا وآخر سيئا ، ظانا أن لقاءه بالعقاد ، وصحبة أبيه له تخول له أن يحكم وأن يحسن التفسـير ، وأن يكتب فى أشياء لاتهم القارئ ،وأية ذلك فيـما نسوقه أولاً من فكاهة أن العقاد لم يمتلك فى حياته سيارة ، ونبادله أفكوهة بنظيرتها قائلين :

إن العقـاد امتلك سيـارة ، واختلف مع سائقـه فلم يغيره بسـائق آخر ، وإنما باع السيارة دون مثنوية ، وكأنه يأبى أن يتحكم فيه أحد !!

حاول الأستاذ حسين أن يتشح بالموضوعية فأثنى على العقاد فى بعض المواطن، مفضـلا شعره على جوانب نتـاجه الآخر ، ونحن نشاطره الرأى وأكـثر منه حيث درسنا شعر العقاد ، ونكاد نحفظه قبل التخـصص فيه فى رسالة الدكتوراه بجامعة مدريد مقارنا بشاعر إسبانى آخر هو ميجيل دى أونامونو(ت ١٩٣٦)، اللهم إلا إذا أراد الأستاذ الكاتب أن يشمل نثره بالحكم الجـائر الذى نعت به كلام العقاد المفتعل المفتقر إلى الإحكام وإلى اللمسة الشخصية ، وإن كنا نشك فى وجهة نظر الأستاذ حسين فى شعر العقاد حيث يحتاج هذا الشعر إلى قراءة خاصة ، وإلى صبر على معالجته والتدسس إليه ، وكلام مندور وصلاح عبدالصبور فى شعر العقاد معروف قبلهما ، ولم يكـن النظر المحايد رائدهما فى كلامهما ، ولهـذا تفصيل ليس هذا أوانه ، وربما كان فى تلقـيب الوزن والقافية «بالقـيد» - وهما نظام وقاعـدة وليسا قيـدا - مايزجى بنا إلى الركون لدى المألوف ، وإلى اطمـئنان الاستسهـال ، وقد رضى الأستاذ حسين بالمألوف والمطمئن .

أما المديح يا أسـتاذ حـسين فهـو بابة رحبة فى تاريخ الشـعر والفنون عـامة ، والمحك الذى لايخطئ هو الصـدق شعورا ، والإجـادة تعبيـرا ، وكان فن الرسم والنحت قـائما فى أحضـان الملوك والسادة ولاعـضيهـة فى كل هذا إلا الكذب ، ومديح الأسـتاذ العقاد لفـاروق كان فى سنة ١٩٣٨ ، يوم كان الملك محـبوبا من الشعب المصرى قـبل شيوع مباذله وكان العقـاد وقتها نائبا عن الصحـراء الغربية ، ومن اللياقـة أن يستقـبل الملك كمـا يصنع الناس جميـعا فى حفـلات الاستقـبال وجاءت القصيدة - وهى فى ديوان العقاد - نصائح فى ثوب المديح وهمس فاروق لبعض مجاوريه بـهذه العبارة التى سمعناها من العـقاد فى داره : «كان أولى بهذا والده» بضمير الغائب كما لقنها فاروق ، فما كان من الشاعر إلا أن طوى القصيدة لم يكملها وحاول رجال القصر رأب الصـدع فى اليوم التالى وهبت عاصفة ألغت الحفل الذى كان مـقررا له أن يكون فى عرض البحـر ، وثمة قصيـدة أخرى حين صحب العقاد الوفد الرسمى لزيارة الملك عبـدالعزيز آل سعود ، ومن اللياقة أيضا

أن يقول الشاعر شيئا ، فقال قصيدة جمع فيها بين الملكين فى قرن ، وكان حظ الضيف منها أربى على خط الداعى ، ولذا لا تكون توبة العقاد من هجومه على فؤاد والتى ألصقها الأستاذ حسين لا محل لها إلا فى نظره هو ، فلينفرد بهذا النظر وحسبه به لمسة شخصية متفردة . !!

وإذا سقط مثل هذه الدعوى فيسقط معها أو قبلها مايترتب عليها من تأييد العقاد للثورة فى بداياتها ، قبل أن تئول إلى حكم دكتاتورى شمولى على يد عبدالناصر، لا لأن العقاد لم يجد من فاروق إقبالا بل لأنه لم يربط قيمته مطلقا بزعيم ، ولأنه يرى أنه لافضيلة مع الاستبداد ، وقد سمعنا رأى العقاد فيما بعد فى عبدالناصر ، وهو رأى ليس للنشر ، ونعتقد يقينا أن رأيه وصل إلى عبدالناصر، نظرا لوجود المندسين فى مجالس العقاد ، ولم يكن ولاؤه إلا لقيمة الحرية التى مارسها عملا لانظرا .

أما أن الإنجليز أوحوا إلى العقاد بكتابه عن هتلر ، فهو قول ظاهر البطلان ، وخاصة من رجل عرف العقاد وطبيعته التى تتأبى على الإملاء ، حتى فى أيام سعد باشا الذى فهم العقاد ، وبادله العقاد فهما بفهم وتقديرا بتقدير ، وقد أطلعنا أيام المرحوم عامر العقاد ابن أخى العقاد على طلب قصر الدوبارة أن يشترى نسخ الكتاب ويقوم بتوزيعها نظير مكافأة سخية ، فرفض العقاد ، وقد سمعنا هذه الرواية من العقاد ذاته ، ويؤازرها فهم دقيق لطبيعة الرجل الذى لم يبع قلمه فى سوق النخاسة - وهى رائجة - فى العصور الخابية ، حين باع الناس كثيرا من ضمائرهم لثمن بخس ، وأين كانت حماية المحتل للعقاد يوم ذهب إلى السودان ، هذه أسئلة ينبغى أن تثار أمام الكاتب الذى يفزع للمرددات الشعبية ، يرددها كما سمعها .

إن بعض الكاتبين - وليس منهم الأستاذ حسين - يكتبون مستهلمين الأحاسيس الضئيلة ، لأن العظمة فى حاجة إلى من يطاولها ليفهمها متعاطفا معها، لاتحيزا ، وإنما مبغاة للفقه الحصيف ، وكان العقاد بعظمته هدفا لمثل هذه الأقلام فى حياته ، وبعد رحيله ، لأنه يمثل نهضة هذه الأمة مع قليل من رفاق جيله ، ومحاولة طمسه وتشويهه ليس مقصودا بها وحده ، بل الأمة فى الصميم، ليطفو الزبد ،

أو إن شئت البجيف ، وقد تنبأ العقاد بسقوط هتلر ، وبسقوط الشيوعية وهما فى أوج ازدهارهما ، وضرب موعدا للثانية بستين حولا ، لم يمض كثير منها حتى سقطت فى عقر دارها ، وسقط هتلر قبلها ، وهو يدوخ الأمم ، وكان نابليون قبلها - فى نظره - مهرجا بالنسبة إلى بعض العلماء مثل «باستور» لأن عينه كانت موكلة بجوهر الإنسان قبل أى شىء آخر .

أما استعراض العضلات فى العلم ، ومرجعه فى رأى الأستاذ حسين - لقصور تعليمه النظامى - فقد كان العقاد يشهد أنه آسى لفقد هذا النظام فى مستهل حياته، ثم صار فيما بعد يحمد الله عليه ، ولو كان العقاد قد أكمل تعليمه النظامى ، لصار مثل كثيرين من أساتذة الجامعات الذين يظلون حياتهم كلها تلاميذ، يقفون بالوصيد من بابة العلم والفكر ، ولماذا ننكر على العقاد أن يستعرض عضلاته بالمعنى الحميد للكلمة إذا كان وراءها رصيد قوى ، وهو مانراه فى كتابات العقاد ، الذى كان يقرأ كل ما يمكنه فهمه ، لا ليتخصص فيه ، وإنما يراه ذريعة لفهم أعمق للحياة وللإنسان ، وهكذا كان كلامه فى الفلك ومجادلته لأستاذ الفلك فى علوم القاهرة ، وغلبته له بالمصادر الحديثة التى لم يطلع عليها الأستاذ ، وكان صراعه مع الدكتور كامل حسين فى الفلسفة ، وحديثه عن الغدد فى كلامه عن أبى نواس، ورجوعه إلى أستاذ أرجنتينى فى الغدد ، كان مثار عجب صديقنا المتخصص الدكتور تيمور خليفة التونسى ، وكيف وصل العقاد إلى هذا الكتاب وهو شديد التخصص فى مادته ، إذا كان استعراض العضلات بهذه المثابة فأهلا به إلا إذا كانت العضلات من «شراميط» على حد قول العقاد ، وقد وقف الدكتور أحمد على الجارم على كلام العقاد فى المسائل الطبية أثناء حديثه عن أبى نواس ، وابن الرومى ، وارتأى رجاحة فكر العقاد وعمق إطلاعه وفهمه ، هل كان الناس يا أستاذ حسين قديما فى حاجة إلى الشهادات التى تطرح الآن فى الأسواق حتى بالتزوير ، لأن بعض حامليها إذا لم يكونوا أهلا لها فهو نوع من التزوير أيضا .

أفكوهة : كنا نمتحن طلاب الليسانس شفويا فكان بعض الطلاب يقول : قال الدكتور المتنبى لأنه لايتصور أن يكون المتنبى عاريا عن هذا اللقب ، وكاتب هذه

السطور - بالمناسبة - لايقرن اسمه بهذا اللقب على الإطلاق حين يكتب لأنها أصبحت ألقاب مملكة فى غير موضعها ، إلا من رحم ربك . !!

إن الاجتراء على المستقبل عسير ، حين يرى الاستاذ حسين مثلا أن أكثر كتب العقاد سيصير إلى طى النسيان ، وهو اجتراء ليس له مايسوغه ، إلا إذا أراد الأستاذ ذلك وماهو بيده ، ولايحسن أن يكون بيده صحيح أن كل شىء إلى دثور وفناء ، يستوى فى ذلك الكتب وغيرها ، لكننا نرى أن الأمة تفزع إلى العقاد فى ساع قنوطها ، وفى مناشطها على السواء ، وليس لديه مايسنده من جاه لأسرته ولا لتلاميذه ، بل يسير فكره وحده لأنه فكر العقاد وكفى ، وقد قرأنا معظم مقالاته ، فى السياسة - وهو أمر آنىّ مرتبط بالحادثة - وفكرنا مع عامر العقاد فى جمعها لولا أن المنون اختطفت عامرا وهو فى أوج نشاطه وفتائه ، لأننا - بالفعل - رأينا فيها فكرا باقيا ، تحذف المناسبة العارضة لترى الفكر الصحيح ، والنظر غير المزغول ، والحرص والغيرة على هذه الأمة وهو قوام كل فكر باق .

وكثير من الكاتبين يموت الكلام على شباة شفاههم وأقلامهم قبل أن يصل إلى القراء لأنه لارصيد له ، وتلك آفة المناسبة الموقوتة وكذب الفكر وارتكاسته، والقضية الكبرى التى أجلناها عامدين إلى نهاية هذه الكلمة ، وهى قضية عقيدة العقاد نحن - يا أستاذ حسين - لا ننبش ضمائر الناس ،فللناس خالق يعلم السر وأخفى ، وغريب أن تشيع قالة سوء عن إلحاد العقاد ، ومايتبادر فى كلامه من بعض تهجم ، ونقول «دعوى على دعوى» إننا عاشرنا العقاد فى مجالسه أربع سنوات أو أشف قليلا ولم نسمع منه أدنى إشارة إلى مايشتم منه إلحاد أو قلة إيمان.

كتب البعض يقول طالما إنه كان يعقد ندوته أثناء صلاة الجمعة ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ، إذا كانت تنتهى الندوة قبل الصلاة بوقت كاف ، وكان مسجد عثمان بن عفان قريبا من دارة العقاد ولانقول بذلك لنرى العقاد من «الدراويش أو من المجاذيب» بل نصف مانرى ، وكان العقاد يكبر الإمام محمد عبده من المعاصرين ، والشيخ محمد شلتوت وانتقد مرة الإمام أحمد بن حنبل فى

فتنة خلق القرآن ، ورأى فيه ضيق حظيرة ومانظن أن نقده ابن حنبل يخرج به عن حظيرة الإيمان ، وربما كان العقاد أقرب إلى فكر المعتزلة دون أن يقع فى حبائلهم جملة ، لأنه يرى أن ما سماه «الوعى الكونى» هو الوسيلة العليا إلى الإيمان ، وكان هجومه على الإخوان المسلمين من أنقى صفحات فكره المجدد ذون أن يكون محسوبا على فئة غير فئة العقاد وأبى - اتساقا مع كرامة قلمه - أن يكتب مقدمة لكتاب يهاجم الإخوان بعد زوال شوكتهم ، وإنه كالفارس لاينازل إلا فارسا شاكى السلاح ، وكتب طه حسين مقدمة هذا الكتاب ، دُون أن نتهم طه حسين بشىء ، وإنما لكل وجهة هو موليها ، وكتابات العقاد الإسلامية - وقد عدد بعضها الأستاذ حسين - تشهد بعمق إيمانه ونفوره من التعطيل والإلحاد فطرة موروثة ، وفكرا مكسوبا .

إن هدم الرموز الكبرى فى الأمة إزاء قالات لا سند لها من فكر صحيح ، هدم لهذه الأمة التى تخطفها الناس من كل جانب ، ولعل الجماعات الإسلامية تتخذ من مثل هذه الشائعات سندا لها فى فهمها المريض والسقيم للإسلام ، والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مقدمة الصخور العظيمة التى تحول دون أفكار ذوى العاهات ،فماذا نكسب يا أستاذ حسين حين نردد مثل هذه الشائعات ، وحتى لو صحت وهو بعيد فإن الإنسان إنسان تعتوره لحظات الضعف والقنوط ، فيضيق صدره ، وتأخذ بأكظامه النوازل فيرتكم اللمم الذى لاتضيق عنه رحمة الله التى وسعت كل شىء ، ولاتضيق عنه رحمة الإنسان على شحها ويبوستها .

أفكوهة أخرى :

كان بعض أساتذتنا فى دار العلوم يضيقون ذرعا بالعقاد لأنه مذكور وهم فى غياهب النسيان - ويستحقونه - كانوا يذكرون لنا صراعهم مع العقاد بالأيدى ، ذكر عبدالرحمن بدوى شيئا شبيها ورددنا عليه فى إبانه ويقصون طرفا مما شاهدوه من مجون العقاد ومرور النساء عرايا أمامه فى داره؟ وكان هذا الأستاذ - فيما زعم - يسكن فى مواجهته وهو قول باطل حيث لم يسكن هذا الرجل هنالك فيما تتبعناه ، واعترف الرجل فى لحظة صدق بريئة أن سبب كلامه هو أنه يدرس منذ أربعين سنة وتخرج على يديه الألوف لايذكرون أستاذيته فى حين يذكرون استاذية

العقاد لهم ، وما أمر نجية السودانية أم العـقاد ، وما إباحيته وانحلاله وتركه زوجة ترتع وتلعب خارج الدار ببعيد عن مثل هذه الشائعات .

إن النفس الإنسانيـة لا تحيا فى التطويب والقداسـة ولا نريد أن نضيفهـما على العقاد الذى كان رجلا فى عقيدته دون أن يكون كالعوام ،ونذر نفسه وفكره للذود عن العقيدة الإسلامية كأبرز مـدافع عن العربية والإسلام فى العصر الحديث ، بل ربما كان من أكابر رجال العقيدة فى كل العـصور ،وإن الإنسان وكان العقاد إنسانا عاليا حتى فى أخطائه البشرية ،ولو كنا نصـدق كل كلام يصدر عن رجل كالعقاد فى بعض اللحظات لخشينا أن نصدق مزاحه مع الأسـتاذ حسين ومع غيره ، وكان الرجل عفا إلا حين يبين له طرف السلاح كما نعتته سارة .

لم يكن العقـاد يا أستاذ حـسين «سـوسة كتب» أو مـوسوعى الثقـافة إن أردنا تهذيب العبـارة ، لأن كفله من النظر ينسب إليه وحـده ولم تكن ثقافته المتـراحبة بمانعة له من النفـحة الشخصـية ، لأن هضمه واستـيعابه لما يقرأ يجـعله فى عداد المفكرين القلائل الذين تبين ملامحهم حين تتيه الملامح والقسمات .

وشكرا للأستاذ حسين أحمـد أمين أن أفسح لنا فى القول ولأبيه من قبله الذى تربينا على فكره منذ مـيعة الصـبا ، وكنا نعرف كـلامه حين قـراءته ولو لم يكن ممهورا باسمه ، ومانريد بهذا أن ندغدغ مـشاعر الابن الكريم بحديث عن أبيه فإننا ورثناه معه ، وماذلك بقليل حين يتوارثه أبناء جيل بعد جيل .

ثلاثة كتب مختلفة.. تنصف العقاد

ثمة جامعة بين هذه الكتب الثلاثة «مختارات من شعر العقاد» و«العقاد فى سياق هجمة معاصرة» و«فلسفة التقدم عند العقاد» للأساتذة : فاروق شوشة ، محمد أبو الأنوار ، حسن الملطاوى ، هذه الجامعة هى محاولة إنصاف العقاد ، فى حيدة وموضوعية ، وإثبات جدارة العقاد بمخاطبة الأجيال القادمة ، واستمرار الاهتمام بالعقاد وحسبنا أن هذه الكتب - مع غيرها - صدرت فى عام واحد ، دون اتفاق بين حضرات المؤلفين الفضلاء ؛ مما يشى بأن العقاد لايزال مشغلة الناس، وأن لديه ما يقدمه فى مشاريعنا للنهضة فكرية ووجدانية ، ويربط بين هذه الكتب ، كذلك الكشف عن أن فهمنا للعقاد لايزال قاصراً ، وأن أصحابها يحاولون - فى إخلاص - أن يكشفوا الغشاوة عن هذا الفهم ، وأن يردوه إلى السواء ، يلتقى هؤلاء - دون اتفاق - فى مجال الشعر وفى مجال الدرس النقدى وتاريخ الأدب وفى مجال الفكر الفلسفى بجوانبه المتعددة ، ولذا قرأت هذه الكتب الثلاثة مرة واحدة ، فكأنى أقرأ لأصوات متناسقة متناغمة فى جوقة موسيقية يومئ بأنغامها ، ويهتف بها «مايسترو» واحد هو «العقاد» .

وثمة اختلاف يسير فى بعض جوانب هذه الكتب ، ولكنه ليس الخلاف الذى يباعد الشقة ويقطع الأواصر ، بل كان الخلاف الذى هو وسيلة للتكامل بينها ، وكأنما يرد بعضها على بعض جلاءً للصورة واستكمالاً لإطارها .

يرد الدكتور محمد أبو الأنوار على هجمة رديئة ، تولاها د. يوسف عز الدين فى كتابه «التجديد فى الشعر الحديث» وفيه جرد العقاد من أية أصالة ، واتهمه بالسطو والسرقة من عبد الرحمن شكرى ، ومفكرى الغرب ، نقلاً عن شكرى ، لأنه - العقاد - لا يعرف الإنجليزية !! إلى جانب تهم أخرى ، تجرد لها أبو الأنوار فى حذق ، وموضوعية ، وهو رجل يعى تاريخ الأدب الحديث وعيًا خاصًا جدًا، ويملك من أدوات البحث والنظر ما يزيف هذه الهجمة بأدلة تاريخية

وفكرية، تملك من وسائل الإقناع الشيء الكثير ، وفى الكتاب ميزة هى نخل الصحف والدوريات القديمة نخلاً جيدًا تأتى لأبوالأنوار تأتيًا فريدًا، إلى جانب ملكته الدقيقة فى الفحص والدرس النقدى ، وأثبت - بدقة - أصالة العقاد ناقدًا، وموضوعيته ورجولته ناقدًا لا يتمرغ فى حمأ الذاتية البغيضة والحقد الطبقى ، كما ادعى الدكتور يوسف عز الدين ، عضو المجمع العلمى العراقى .

أما الدكتور حسن الملطاوى فهو باحث مخلص ومن طراز نادر هذه الأيام ، لأنه متجرد للبحث العلمى ، تستغرقه شواغله عن توافه الحياة ، ويمتلك حسًا وفكرًا عميقًا ، يخولان له أن ينفذ إلى معضلات الفكر الفلسفى عند العقاد وغيره، ودراسته كانت أطروحته للدكتوراه فى قسم الفلسفة بجامعة عين شمس ، وهى من الرسائل الجيدة والنادرة ، التى سعدنا بقراءتها فى السنوات الأخيرة ، وفيها يثبت أن للعقاد فلسفة - لبعض أساتذة الجامعة آراء سيئة فى العقاد فلسفيًا - وهذه الفلسفة تستطيع نسبتها للعقاد ، وأنت مؤمن شديد الإيمان بأنك لا تجور على مفهوم الفلسفة ، لدى مفكريها وأصحابها الأصلاء ، وطوف الملطاوى تطوافًا حسنًا بين فكر العقاد وفلسفته فى التاريخ والسياسة ، والعقيدة والأخلاق مرتئيًا نظرًا فلسفًا خاصًا ، يمكن نسبته للعقاد بجدارة وأصالة ، وأن هذه الخيوط كلها انتظمها عقد واحد ، ألف بين شتاتها ، فكونت منظومة فكرية متسقة ، كانت وراءها شخصية العقاد وفكره وهضمه الجيد للتراث الإنسانى وإضفاؤه عليه مسحة عقادية ، لا تضيع فى الزحام ، وحسب هذا من فكر أصيل ينسب لصاحبه . وللباحث مقدرة جيدة على عرض الأفكار ، وتحليلها ونقدها والتعبير عنها بوضوح، لا يتزيا بثياب الغموض وادعاء العمق المرذول ، ويثبت الباحث فى النهاية أن للعقاد فلسفة ، وأنه أصيل ، وأنه قدم مشروعًا للنهضة وأصالة للفكر العربى الإسلامى ، وأننا خاسرون حين نستدبر مثل هذا الفكر ، لأنه يجمع بين تراثنا القديم الجيد ، وبين وافدنا الجديد المستحق أن يدخل نسجنا وهويتنا .

أما «مختارات من شعر العقاد» فقد وضعه على عينه الشاعر المبدع الكبير فاروق شوشة ، وهو رجل هاضم ومستوعب للشعر العربى فى نماذجه العليا ، وحساس شديد الحساسية بتصريف الكلام الشعرى ، لأنه يحترق به ويبدعه ، ولذا تكون

مختاراته للعقاد ولغيره على مستوى قامته الباذخة ، ونحن من المؤمنين بالمختارات الشعرية، وأمتنا أقدم الأمم فى المختارات ، التى هى أحدث صيحة معاصرة الآن، ونؤمن أكثر بمختارات للعقاد الشاعر خاصة ، للأسباب التى ذكرها فاروق شوشة فى مقدمته الجيدة ، وكنا نحب أن يتوسع فى هذه المختارات ، لكن يبدو أنه يفتح شهية القارئ ، ليزوده فيما بعد بجزء آخر أكبر وأوسع ، ولعل عينه كانت على القارئ المتعجل على طريقة كتاب «الجيب» فهى عجالة ربما تدفعه إلى البحث عن شعر العقاد ، وفيه مناطق غير مأهولة تستحق التريث عندها ، لكن الرسالة التى أرادها فاروق قد وصلت إلى ذلك القارئ ، ولعلها تكون قد وصلته بالفعل حيث إن طبعة المجلس الأعلى للثقافة لا تجد منافذ يصل إليها الناس بسهولة ، فلعل الدكتور جابر عصور يضيف إلى أياديه يدًا أخرى فى إيصاله لراغب القراءة فلا تخفى هذه الطبعة شعر العقاد مع جملة الأسباب التى ذكرها فاروق لخفاء شعره ، وأن تراجع الأخطاء المطبعية فلا تمثل عائقا آخر .

نحن نؤمن إيمان فاروق شوشة بأن العقاد الشاعر هو أفضل وجوهه ، يتقدم الناقد والمؤرخ والسياسى والمفكر ، ونؤمن بأن العقاد تميز فى تلك المناحى لأن شاعريته تدسست إليها فأراقت عليهاوهجًا ونفاذًا ، لكننا نؤمن بأن هذه الجوانب باقية للناس ، لأصالتها ودلالتها على صاحبها ، ولأن العقاد ليس موسوعة إلا بالمعنى الحميد ؛ لأنه يريق روحه على كل ما يهضمه ويتمثله ، وهذا هو العقاد الذى يبقى ، ولعل دراسة الدكتورين «أبو الأنوار» وحسن الملطاوى تثبتان ما يبقى من العقاد الناقد والمفكر ، وغير هذين كثير ، وليس رجمًا بالغيب أن نقول إن بقاء العقاد مرهون بهذه اللغة وأدبها وفكرها ومرهون أيضًا بمعدن البطولة فى الناس ، ونعتقد أن هذه أمور باقية ، إلا إذا مسخ الناس خلقًا جديدًا ، وجه الشاعر أول الوجوه ، غير أنه لا يطمس الوجوه الأخرى ، وكم للعقاد من وجوه !!

نحن نشارك الأستاذ فاروق اهتمامه وحفاوته بديوان «عابر سبيل» ، بيد أننا لا نضعه فى صدارة كلامه الشعرى ، ولعل فيه قصائد نرى فيها رداءة أليق بها كتاباته النثرية ، نقول هذا ونحن نكبر العقاد الشاعر جدًا ، ونظن أن من إكبارنا له أن نرى رداءته وأن ننبذها جانبًا ، ولعلنا نقول - ونحن شهود عيان - إن العقاد كان

يحتفى بالشاعر منه حفاوة خاصة جدّا ، وقد سئل أمامنا عن ملكاته فى جريدة الأنوار اللبنانية - فعد الشاعرية أولى ملكاته ، وكانت قصيدته فى رثاء لطفى السيد باشا ، قد أرانا مسودتها ، وهو فى قمة الزهو بها ، وكذلك قصيدته فى رثاء محمد حسن الشجاعى ، ولم يكن يحرص على وجه الكاتب - وهو وجه عظيم - حرصه على وجه الشاعر .

إننا نرى فى هذه المختارات الجيدة ذوق الشاعر فاروق شوشة ، ووافد عقله ، ووجهه كذلك ولعله يتيح لنا جزءًا آخر ، ربما ينتظره جمع آخر من القراء الذى شاقهم منه هذا الجزء ، ونعتقد أن هذه الكتب الثلاثة قريب من قريب حين تكشف عن هذه الوجوه المتعددة والأصيلة فى الوقت ذاته لرجل ملأ الدنيا وشغل الناس، وسيظل يشغلهم ناقدًا، ومفكراً وشاعرًا ، لأنه فى كل ذلك أصيل ؛ ولأنه يحيى فى الأمة ما لاتحيا إلا به وهو الإبداع الأصيل ، والفكر المتجدد ، والنقد الخلاق ، وتحية لهذا الثالوث الكريم ، وتحية لمن كان باعثًا كريمًا لالتقائهم بعد ثلاث وثلاثين سنة من رحيله الباقى .

ليس دفاعا عن العقاد

الأدباء والفنانون هم ضمير أى أمة ، يحملون رسالة من أقدس الرسالات ؛ إذ يعبرون عن الإنسان الذى كرمه الله بحمل الأمانة ومسألة التعبير هى الملكة الناطقة فى الإنسان . ولا يستطيع المرء أن يتخيل أمة دون أدب وفن جميل، إنها لا تبلغ مرتبة الحيوان الأعجم ، لأن لهذا الحيوان قدرة فنية يعبر بها عن ذاته فى حالة الرضا والسخط والفرح والحزن ، بل تنحدر إلى درك الجمادات وإن كنا نشك في أن الجمادات بهذه الصفة ؛لأنها تتجاوب وتشعر ، ولأمر ما قال النبى (صلى الله عليه وسلم) عن جبل أحد : «إنه يحبنا ونحن نحبه» .

وقد أتيح لتاريخنا المصرى القريب طائفة من الأدباء والفنانين يشكلون التضاريس الوجدانية والفكرية لهذا البلد فى صدارتهم طه حسين، العقاد ، الزيات، الحكيم ،الجارم، نجيب محفوظ وإخوان هذا الطراز .

وهؤلاء لهم رسالة فى حياة أمنهم لا ينكرها إلا من على عينيه غشاوة ، وقد تميز هؤلاء الرواد جميعا بسعة أفق وفهم عميق للحياة وإدراك فطن لرسالة الفن ، التى هى فى جوهرها الحقيقى رسالة الدين والمثل العليا ، وفى وسع المرء أن يتخيل مصر دون طب ومحاسبة ووعظ وخطابة مع سمو هذه الرسالات وضرورتها فى الأمة ، ولا يتخيلها دون أدب وفن ؛ لأن الوظائف الأولى فى وسع الكثيرين أن يتعلموها ، ويجزئ فيها واحد عن واحد من أصحاب هذه المهن . . أما الأدب والفن فلا يتعلم والأديب أو الفنان لايلغى رسالة أخيه لأنهما لا يتشابهان ، ومن ثم لا تصلح نسخة مكان أخرى . . لمصلحة من إذن تشرئب بين الحين والحين دعوات خبيثة ، تشكك فى قيمة الفن والأدب ورواده . . وكنا نمر بهذه الدعوات ولا نوليها كبير اهتمام أو كنا نهتم بها أحيانًا لأن أصحابها لديهم قدر من العقل ، تصلح معه؛ لمناقشة . . ولكن اهتمامنا الآن لا يذهب هذا المذهب ، بل يتجه للشكوي من البدهيات ، التى طالما شكا منها الإمام محمد عبده ، حين كانت ترد

إليه أسئلة من قبيل هل إشعال الكبريت حلال أم حرام مما عرف بفتوى (الترنسفال)، وطالما شكى منها العقاد حين كانت ترد إليه أسئلة مستنكرة عن موقف الإسلام من الاحتفال بأعياد الميلاد ؛ لأنه كان يحتفل بعيد ميلاده وهو الكاتب الإسلامى ، وكان يضطر للرد وضياع وقته الثمين فيما لا يجدى .

ومع ذلك يجىء الآن من يتهم العقاد بأنه فى شبابه طلب قلمًا أحمر ليخط به على المصحف كأنه يعترض عليه ويريد تصحيحه ، ويتهم أيضًا بأنه لم يكتب فى أخريات حياته إلا الإسلاميات . !!

إن المرء فى حالة شديدة إلى جلادة وجه وبلادة إحساس ؛ ليرد على هذه الأراجيف وأمثالها والمرء محتاج إلى كثير من الغرور ، الذى عابه البعض على العقاد لمجابهة مثل هذه الترهات ؛ فالكلمة لم ترد عن العقاد ، ولا سند لها إلا صاحب الإشاعة، كما أشيع أن العقاد معقد كاسمه . أولاً . العقاد التفت مبكرا إلى القرآن وإلى الفكر الإسلامى عموماً وأسلوبه شعراً ونثراً لمن قرأة - وماقرأه من يتهمونه - يلحظ فيه التأثر بالنسق القرآنى وفى كتابه (ساعات بين الكتب) مقال ضاف عن إعجاز القرآن وفهمه لهذه القضية ، وفى كتابه (الفصول) وصدر عام ١٩٢٢ ، وكان منشوراً قبلها مقالات ، حديث جيد ودقيق عن الصورة الفنية فى الآيات الكريمة : ﴿ **والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ** ﴾ [التكوير١٨] و ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** ﴾ [الحج ٢] . وهذا التصوير القرآنى الذى التفت إليه العقاد مبكرًا كان شديد التأثير فى تلميذه سيد قطب فى كتبه الإسلامية .

إلي أن جاءت كتب كاملة عن الإسلام وأعلام الإسلام على نسق لم يكتب من قبل ولم يجن منها العقاد مالا كما يجنى المتاجرون بالدين ، ولا يكاد يفهم هذه الكتب من يتصدون للكلام عن الإسلام بلغة عامية تخاطب العوام ، ولا تؤثر فى المثقفين إلا أثر الاستنكار والازورار ، إن كتبًا للعقاد عن الله وإبليس والفلسفة القرآنية والإنسان فى القرآن الكريم وغيرها مما يجاوز الأربعين تحتاج إلى قراء من نوع خاص ، ليس منهم العوام وأشباه العوام بالتأكيد .

ثانياً: كتب العقاد المقالة الوصفية ونقد معارض الفنون ، وتحدث عن اسمهان ونجيب الريحانى وسيد درويش والشجاعى وغيرهم ، وكتب قصيدة الغزل كما

تشهد دواوينه الأخيرة بجانب الكتابات الإسلامية التى تنضح إيمانًا وعقيدة وفكرًا مستنيرًا وردًا على خصوم الإسلام من المبشرين وأشباههم ، ولم يتب عن شعره وغزله حتى آخر حياته ، كما لم يتب عن كلامه عن الفن والفنانين لأنه يحمل رسالة راقية لا تتعارض مع الإسلام وفكر الإسلام ، وهذا هو سر عظمة رجل كالعقاد . لقد انشغلنا عن إسلاميات محمد عبده وجمال الدين ومصطفى عبد الرازق وشلتوت والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وغيرهم من قدامى ومحدثين ، وانشغلنا بالحديث عن آداب قضاء الحاجة والدخول بالقدم اليسري أو اليمنى ! وبالمسح على الخفين- وكيفية عتق المكاتب والحديث عن الغيبيات ، ويجزىء فيها التسليم ، والإيمان المطلق عن طريق النقل إلى غير ذلك . إن مشكلتنا أننا استبدلنا الذى هو خير بالذى هو أدنى وغدونا نشكل عصبة أو تيارًا يقتل وجدان الأمة المتمثل فى أدبها وفكرها وفنها ، ويقتل رجال هذا الأدب وهذا الفكر وهذا الفن ، دون أن ندرك أو ندرك ، والله أعلم ، أن هذا هو البوار بعينه، منحدرين إلى درك أسفل يقودنا إليه الأميون وأشباه الأميين وما هم بنا نافعين ولا فالحين .

العقاد بعد خمس وثلاثين سنة

خمس وثلاثون سنة ، ولايزال العقاد حاضراً كما كان وأكثر .

خمس وثلاثون سنة ، وخمس وعشرون رسالة جامعية عن العقاد .

خمس وثلاثون سنة ، وحاجتنا إليه تشتد الآن عما كان فى حياته .

أما كاتب هذه السطور ، فيستحضر لقاءه الأول به ، كأنه كان بالأمس ، أو صباح اليوم !!

ما أسرع الأيام فى طينا تمضى علينا ، ثم تمضى بنا .

مضت خمس وثلاثون سنة على رحيل العقاد ، تقلبت خلالها أطوار الأيام ! نكسة ١٩٦٧ ، ونحمد الله أنه لم يشهدها ، مع أنه كان يتنبأ بعواقب حكم الاستبداد ، وحكم الفرد ، مرتئيًا أنه لا فضيلة مع الاستبداد ، والحكم الشمولى.

وكانت أحاديثه فى ندوته ، سياطًا من نار على الدكتاتورية ، وغياب الديمقراطية، دون أن يخشى الزبانية الذين كانوا يندسون بين رواد ندوته ، وكان الناس - إلا من رحم ربك - فى غيبة من الوعى والبصيرة .

تعاقبت الأيام ما بين الهزيمة ، ونصر أكتوبر المجيد ، وطالما دعا إلى الجهاد ، وشدد النكير والهجوم على الصهيونية ، والاستعمار ، ولو عاصره لتغنى به شاعراً يحيا آمال أمته ، وقصائده عن عيد الجهاد ١٣ نوفمبر لاتزال تهز الوجدان .

وتنبأ بسقوط الشيوعية لأنها غير إنسانية ، وحققت نبوءته الأيام ، ولاتزال كتبه المرجع والسلاح غير المثلوم فى وجه المذاهب الهدامة . وحارب الدكتاتورية باسم الدين ، فأصلى الإخوان المسلمين ناراً حامية ، وقال فيما قال : إن الله عز وجل لم يدع هذا الحق الذى تدعيه الجماعة ، وذلك أنه لا يعاقب أحداً دون حساب ، وأن الفكرة بالفكرة والجريمة بالعقاب، وأن الحرية بخير ما دامت الجريمة بالعقاب، وأن الحرية بخير مادامت الجريمة مقيدة .

وحارب العقاد طغيان الألقاب ، وخواءها ، وأنها لاتصنع قيمة لمن لا قيمة له، وأثبت عملاً ، لا قولاً فقط ، أنه فوق الألقاب ، وأنه حاطمها ، وأنه فى أمة الألقاب يسبقهم سعياً بلا نعت ولا لقب ، ولم يغفر له وثن الألقاب هذه الجريمة»، فحاول تجريده من الشاعرية ومن الكتابة ، وألصق به تهمًا غريبة ، كلها بينة البطلان ، وهل يستجيز العقل أن يصدق أن العقاد غير شاعر أو شاعر عقلانى، إلى آخر هذه المقولات الظالمة وغير الواقعية ؛ لأنه ورث الإيمان فطرة ، وزادته الدراسة يقينًا ، ولأنه شاعر الوجدان الراقى ، ولأنه الناقد الذى يزن كلامه بميزان دقيق ، دون أن يعبأ بالجزاء أو بالوعيد ، فى جيش من المرشوين ، والزاحفين على أمعائهم ، ولأنه كشف جماعة من ذوى الألقاب الجامعية ، يذكرك بعضهم بأحمد بن عبد الوهاب فى رسالة الجاحظ لا هم لهم إلا أن يحقدوا ليكتبوا ، ويكتبوا ليحقدوا ولا يلتفت إليهم أحد ! .

خمس وثلاثون سنة وقضايا ساخنة تملأ الساحة وللعقاد فيها فصل الخطاب ، وأهمها قضية التجديد ، والمحك فيها الذى لا يخطئ هو أنه لا تجديد من فراغ ، وأن القواعد غير القيود ، وأن الإبداع الحق أن تلعب بين الضرورات ، وإذا كانت بعض التجديدات قد تجاوزت هذه القواعد باسم التجديد ، فقد وقعت فى مأزق الآن ، وحيث وصلت إلى طريق مسدود ، وأصبح اللاحق مقلداً للسابق ، حين رضيت بالفوضى بدلاً من القاعدة ، ومن هنا خبت الجذوة ، وهمدت فى مخازن التاريخ ، وغدا العقاد أكثر تجديدًا من الدعاوى التجديدية ؛ لأن أصحها ماهداك إلى فطرتك فى إطار من تقاليد الفن وضروراته .

ولابد أن يلتفت الناس إلى العقاد فى إطار حركات التجديد فى الفكر الإسلامى؛ حيث هو وزان بين العقل والنقل ولكل منهما تخومهما ، وأن البدع متطرفة أو جامدة لا مكان لها فى الفكر الإسلامى النقى ، ولا فى فكر العقاد حيث يقرن بشيخه المجدد محمد عبده ، وفى الفكر اللغوى يعود الناس إلى العقاد اللغوى ، وإلى لغته الشاعرة ، آمنين من دعاوى الخذلان والعجمة ، لائذين بالأمل فى نهضتها وإن تناوشتها الأعاصير .

وسيبقى فكر العقاد السياسى ، حيـن تقترن السياسة بالأخلاق والأريحية والمثل العليا ، وحين تكون الحـرية والديمقراطية التى دعـا إليها وسجن فى سبـيلها أملاً تشرئب إليه الأمة حين تحدق بها المخاطر .

خمس وثلاثون سنـة ، ويطبق الصمت الرسمى فـلا يحتفـى به ، ويغيب عن قائمة «كتاب فى جريدة» لكننا نحيى ذكراه فـتحيينا ، ونعود إليه حين لا نعود إلى كثيرين من الأحياء ، الذين أماتتهم المنفعة القريبة والفن «التفصيل» ، والعقاد دائمًا يلبى العودة إليه ؛ لأنه قرين النهضة والحرية والتنوير .

العقاد ومحنته مع هؤلاء الجامعيين

صورة أحمد بن عبد الوهاب التى رسمها الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ربما يعجز عن رسمها كبار مصورى «الكاريكاتير» ؛ حيث ينفرد الجاحظ برسم الملامح النفسية ، التى تحملها الصورة القولية أكثر مما تحملها الريشة والألوان .

وأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعًا وتحسبه مدورًا ، وكل شأنه قائم على الادعاء ، وهو فى رأينا ليس فى زمن الجاحظ فقط ، بل إنه خالد يتخطى حدود الزمان والمكان ، نقابله فى السوق والطريق وحتى قاعات الندوات والدروس ويبدو أن خلوده وهبه كثرة ونجابة فغدا طائفة معروفة بسيماها ، وكلما تقادم به الميلاد تقادمت به هامة العجب والادعاء ، وإذا تحرك كله مثل الكثيب المهيل ، يلوك من الكلام ما يفشى به حقده وادعاءه ، ويظن ذلك مؤثلاً له مكانة بين الأساتذة والنقاد .

ويبدو أن الجاحظ ابتلى به كما ابتلى به العقاد فلا ينى أحمد بن عبد الوهاب فى عصرنا عن ملاحقة كتابات العقاد وشخصه بل وتلاميذه ، وهو محق معذور؛ لأن ذلك كله يدله على نقصه ويكشف عن عواره ومحنته ، إذ أنفق «أحمد» حياته يسود أوراقًا يظنها نقدًا وماهى ببالغة أن تلفت إليه نظر «العقاديين» ولو نظر الازدراء ، ويستخف بها غيرهم إلا ما يكون من باب المجاملة والمراءاة والبحث عن المآرب الرخيصة ، ويشدو صاحبنا طرفًا من علوم الأوائل هى قشور ، لا ينفذ إلى لبابها ويحجم ببعض كلام الأوروبيين وهو عن موارده الحقيقية بعيد فيجمع حصى يقذف به الأصلاء ، يرتد إليه قيحًا وصديدًا ، وتستعلى به السن وليس له من المريدين ما لدى العقاد ، الذى لم يكن أستاذًا فى الجامعة ، ولا صاحب جاه ينفع ويضر فتشتعل السخيمة أكثر «فيرشح موتًا» على حد قول ابن أخت تأبط شرًا!!

أحمد بن عبد الوهاب ليس رجلاً واحدًا، ولكنه نموذج لفئة من الجامعيين وغيرهم ، كان العقاد بشخصه ونتاجه عقوبة لهم تماسيهم وتصابحهم وتشخص

أمامهم العقوبة أكثر فى المريدين للعقاد إخلاصًـا وفهمًا ، غير عابئين بمعاقرة المنافع الحقيرة تأسيا بالعقاد وكرام الكاتبـين ، وهم يحملون رسالته دون ذوبان فيه ، وفئة أحمد ابن عبد الوهاب لا يدركون من الرسالات إلا أخسها وأدناها إيذاءً لكل قيمة شريفة .

لو لم يكتب العقاد حـرفًا ، لكانت حياته الشخصيـة طرازًا نادرًا من الأريحية والنبل والفداء ، فما بالك إذا قارناها بكتـاباته المفصحة عن ملكة نادرة فى الملكات الإنسانية قوامها تفرد النظر مع الإحاطة المستوعبة ، وهى تمثل نهضة لهذه الأمة إذا أريد لها أن تنهض ورسـالته يحملهـا الزمن دون مساندة من هيـئة أو عصبـة لأنها قامت وحدها فى حيـاة صاحبها دون هذه المساندة . . فلا تنطـفئ برحيله كما هو الحادث مع نظرائه ، حين يرحـلون فيرحل كثير من وهـجهم أو يحمل هذا الوهج عصبة أو هيئة ، وغير ذلك رسالة العقاد المشتعلة ذاتيًا ويزيدها الزمن توهجًا .

حسب أحمـد بن عبد الوهاب أن يجعل العـقاد ناقدًا غير أصـيل أو شاعرًا من طبقة متدنية أو مفكرًا قليل الحظ من التمـيز أو موسوعيا (كلمة حق يراد بها باطل) يجمع معارف غير مهضومة أو إسلاميا غير صادق الاعتقاد متاجرًا بالدين . . وظن أن هذه الدعـاوى تجوز ؛ فإذا بهـا تتهـاوى ليبـقى العقاد الـشاعر والناقـد والمفكر الأصيل دون سند ، غير نتاجـه ذاته تتعدد طبعاته مشروعة وغيـر مشروعة، ويبقى أكثر فى وجدان الناس وعقولهم لأنه المعدن الأصيل .

وغفر الله لشيخنا الجاحظ الذى يناصيه العقاد غزارة إنتاج وسخرية ، وإن كانت سخرية صاحـبنا المصرى أشد ركانة من «ألاعيب» صاحـبنا البصرى ، الذى صور أحـمد بن عـبـد الوهاب وتلعب به لنلهـو به على أفـواه الطرق وقاعـات الدرس وصفحات الورق «الطرس» ، فيظل هزأة أمام العين وأمام النفس .